فصل

في احوال جبل لبنان

وكان جبل لبنان عَلَى ما تقدم مستقلاً في اموره الداخليَّة من يوم فتح الاتراك بلاد الشام في سنة ١٥٢١ عَلَى يد السلطان سليم الفاتح ولما كان جبل لبنان في وسط الشام ومركزهُ الطبيعي يساعد اهلهُ عَلَى رد الاعداء والامتناع فيهِ صار امراؤُهُ عقبة في سبيل هذه الدولة اذا عصاها واحد من الناس فرَّ اليهِ ولطالما حاول الولاة العثمانيون في عكا والشام ان يمدوا سطوتهم الى هذا الجبل فخابت آمالهم ولم يروا طريقة لنوال هذا الغرض غير ايجاد الانقسام والتحزب في لبنان بدل الاتحاد الذي عرف عن اهلهِ فقد كان الدروز والنصارى فيهِ الى منتصف هٰذَا القرن يعيشون بالولاء والاخاء ولم تحصل بينهم حروب دينيَّة مثل الَّتِي نكبت بها هذه البلاد التعيسة من سنة ١٨٤٠ إِلَى سنة ١٨٦٠ حتى ان الاكراد والعرب وغيرهم من طوائف الشام المجاورة لهذا الجبل كانت تستعين بامرائهِ عَلَى الدولة وتلجأُ اليهِ ساعة الحاجة فلم يرَ الاتراك بدًّا من اضعافهِ واذلال اهلهِ ولم يخطر ببالهم غير هذه الطريقة الَّتِي ذكرناها وهي ان يجعلوا اهل لبنان اعداءً بعضهم لبعض ولسوء الحظ نجحت سياستهم وعادت باوخم العواقب كما سترى · ولم تبدأْ هذه السياسة بالنجاح الاَّ من بعد رجوع العساكر المصريَّة عن

بلاد الشام وعود الاحكام التركيَّة اليها واما قبل تلك الايام فكان امراء لبنان من بيت معن وشهاب وتنوخ لا يحاربون حربا الاَّ اذا كان الدروز والنصارى فيهِ يداً بيدٍ ولا يعرفون غير الاحزاب السياسية الَّتي ينضم فيها النصارى الى الدروز وينقسم الدروز على الدروز وهذه غير الحروب الدينيَّة الَّتي اضنت قوام الطائفتين. وحكم الامير بشير شهاب الشهير الذي ظلَّ مولى البلاد حوالي خمسين سنة من سنة ١٧٨٩ إلَى ١٨٤٠ يشهد بذلك فقد كان هذا الرجل العظيم مسلمًا في اول امرهِ ثم اعتنق النصرانيَّة وصار مارونيًا ولكن الدروز كانوا ساعدهُ الايمن ولم يستعن بسواهم في حروبهِ واموره وكان الشيخ بشير جنبلاط وهو اقوى مشايخ الدروز يومئذٍ واشهرهم اقرب الناس واحبهم اليهِ يزورهُ كل يوم ويتفق معهُ عَلَى كل مسألة ولكنهما اختلفا في آخر عهدهما بدسائس الاتراك ولما قتل الشيخ بشير جنبلاط في عكا عَلَى يد الجزار المشهور بالظلم وظن اهل لبنان ان ذلك كان بطلب الامير بشير قاموا عليهِ وشقوا عصا طاعتهِ وكان الدروز والنصارى من جملة العاصين لم يخطر ببال واحد منهم ان يقول ان هذا نصراني وهذا درزي

وعَلَى ذلك فقد كانت حالة النصارى في جبل لبنان إلَى عهد تلك المذابح عَلَى ما يرام ولم تخلُ قرية منهم ومن الدروز فكان الدروز يخضعون لمشايخ النصارى والنصارى يخضعون لمشايخ الدروز عن نفس طيبة راضية. وتقدم النصارى في لبنان تقدمًا يذكر فبنوا القصور الباذخة والكنائس الكبيرة واقتنوا الارزاق الواسعة وتظاهروا بالنعمة

الكثيرة وظهر منهم الكتّاب والشعراء والاغنياء والفرسان واصحاب السياسة وكان لعقلائهم الكلمة النافذة يسميهم مشايخ الدروز اخوانًا لهم و يعيشون معهم عَلَى انقى الوداد كل هٰذَا كان في لبنان والمسيحيون في المدن ٱلَّتِي يحكمها الاتراك في الحال ٱلَّتِي وصفناها في الفصول السابقة وليس بعد هٰذَا دليل عَلَى ان الاهالي لم ياتوا كل هٰذَا العداء والجور من عند انفسهم لولا ان يضطرهم الاتراك اليهِ بدسائسهم المعروفة ومكايدهم الموصوفة

قلنا ان البلاد الشاميَّة لم ترَ راحةً وهناءً من بعد الفتح التركي حتى منَّ الله عليها بالفرج عَلَى يد ابرهيم باشا المصري ابن المغفور لهُ محمد علي باشا والي مصر وكنا نود الاسهاب في هٰذَا الباب ولكن المقام لا يسمح لنا و يكفي ان نقول ان ابرهيم باشا رحمة الله عليهِ حكم البلاد بالعدل والانصاف والحزم والعزم إِلَى درجة لم تعرف عن الذين تقدموهُ من الاتراك . وكان حاكم جبل لبنان الامير بشير شهاب حليفهُ ومساعدًا لهُ فلم يلقَ من اهل الجبل معارضةً تذكر ولما استتبَّ لهُ الامر شرع في تنظيم البلاد واقامة العدل فيها وجعل فاتحة اعمالهِ تحرير النصارى من رق العبوديَّة ٱلَّتِي قيَّدهم بها الاتراك مدة السنين الطوال وابطل الامتياز الذي كان للمسلمين في ملابسهم ومعيشتهم وصيَّر الناس سواءً امام المحاكم ٱلَّتِي اقامها للفصل في دعاوي الناس وادخل العدد الكبير من اهل الذمة في عداد الموظفين والمامورين فعيَّن منهم الكتَّاب والضباط في الجيش والجندرمه والحكام والمعاونين من كل الاصناف ولما هدأَ روع البلاد وارتفع الظلم عاد إِلَى المدن

عدد كبير من النصارى الذين هربوا منها إلَى جبل لبنان فعاشت تلك المدن بعد الموت وعم الامن وساد الصلح والاصلاح ودار دولاب التجارة فتقاطر الافرنج إلَى مدائن الشام المعروفة بنوع اخص وكأن البلاد كانت في الجحيم فانتقلت إلَى النعيم وفي حالة النزع فمن الله عليها بالشفاء عَلَى يد ذلك البطل الهمام . وكان المرحوم محمد باشا شريف واليًا عَلَى بلاد الشام من قبل الامير محمد علي صاحب مصر فجرى عَلَى خطة مولاهُ من الاصلاح والعدل وارى الاهالي من آيات الانصاف ما لم يسمعوا بمثلهِ في سابق الايام وبنى لنفسهِ القصور وغرس الحدائق في الشام واقام الآثار الَّتي ورثها اولادهُ من بعدهِ

عَلَى ان البلاد الَّتي تعوَّدت الاحكام الفاسدة والاهمال في صوالح العباد والانقياد للغرض بدل الحق رأَت في هٰذَا الانتقال السريع امرًا غريبًا حبب إلَى بعض اهلها الثورة والعصيان . وكان المشايخ الذين جاروا بالعباد في عهد الحكام الاتراك لا يقدرون عَلَى ما تعودوهُ من آيات الظلم والاستبداد في اهل البلاد مدة حكم الدولة المصرية فلم يرق لهم هٰذَا الحرمان من سلطتهم القديمة . ثم ان بعض المسلمين لما رأَوا مع ابرهيم باشا العمال والقواد من الافرنج والمسيحيين من اهل بلادهم ظنوا ان حكومتهُ تخالف قواعد دينهم ولم يرضوا عن هٰذَا الانصاف بعد ان كان المسيحيون عبيدًا لهم يذلونهم كيف شاؤُوا ويستحلون دمائهم واموالهم فاظهروا التذمر وبدأُوا يحسنون لغيرهم من الناس العود الى حكومة الاتراك وساعدهم عَلَى ذلك دسائس الاتراك الذين رأَوا الملك يروح من قبضتهم وابرهيم باشا الاسد الغضنفر يتقدم

من بلاد الشام غازيًا فاتحًا حتى اوشك ان يصير هو السلطان في المملكة العثمانيَّة . ومن غريب الامر ان اهل البلاد عن بكرة ابيهم بدأُوا يشعرون بامرٍ يكرهونهُ في دولة ابرهيم باشا مع كل ذلك العدل والانصاف ذلك ان الحكومة المصريَّة كانت تطلب الشبان للانتظام في سلك جيشها من كل الطوائف ولم يكن لها بد من ذلك لقاء ما ارادتهُ من فتح البلاد التركيَّة فهاج الاهالي من جرى ذلك ومانعوا في الامر ممانعة كبرى وقام النصارى عَلَى الذين حرروهم من ربقة الاستعباد واتفقوا مع الدروز عَلَى محاربة ابرهيم باشا واعوانهِ لانهم عاشوا الاجيال الطوال تحت حكم الاتراك ولم يؤْخذ منهم اولادهم ليحاربوا مع الدولة في الانحاء القاصية فكانوا يؤْثرون كل ظلم وجور عَلَى هٰذَا الامر . على ان هٰذَا لم يرع البطل ابرهيم باشا فانهُ شدد الوطأَة عَلَى المعاندين والمعارضين وانتصر عليهم بقوة سيفهِ وبدد شملهم في انحاء كثيرة من بلاد الشام وظلَّ الدروز مدة طويلة يحاربونهُ في وادي التيم وحوران بعد ان خلدت البلاد إِلَى السكون واطاع الناس حكمهُ واشتهروا بما اظهروهُ من البسالة في محاربة العساكر المصريَّة مع انهم كانوا اقل عددًا وانتظامًا من عساكر ابرهيم باشا ولم يكن لديهم من السلاح ما كان في حوزة الجيش المصري . عَلَى انهم خضعوا بعد العناد الطويل وبطش بهم ابرهيم باشا في حوران ففروا من وجههِ وعاد البعض منهم إِلَى لبنان فصاروا يقلقون العساكر المصريَّة بالمناوشات المستمرة حتى اذا رأَوا ان هٰذَا العداء لا يفيدهم في شيءٍ سكتوا عن الحرب وهدأَ روع البلاد وانتظمت الاحوال ولم ترَ بلاد الشام هناءً

وعدلاً مثل الذي رأتهُ في ايام ابرهيم باشا ولو ظلت البلاد في قبضة الدولة المصريَّة إلى الآن لكانت في مقدمة البلدان الشرقية الناجحة في العلم والصناعة والتجارة

ولكن الزمان اقسم الاَّ يريح الشام ولا ينصف اهلها فان انكلترا رأت ان تعيد هذه البلاد المسكينة إلى الاتراك وساعدتهم على ذلك فجاءت عمارة من بواخرهم ومراكب تركيا والنمسا في اوائل عام ١٨٤٠ إلى بيروت لمساعدة الاتراك على اخراج جيش ابرهيم باشا من الشام وردهِ عن بلاد الاناضول بعد ان وصل إلى ابواب الاستانة وكسر جيوش الاتراك وفلَّ جموعهم في كل معركةٍ وفروا من وجههِ حتى صار على وشك امتلاك عاصمتهم الاستانة · ودار عمال الاتراك في البلاد ينفثون سم نفاقهم ويعملون على خراب البلاد بحيلهم ودسايسهم ويرغبون الاهالي في العود إلى قبضة دولتهم فوافقهم على ذلك بعض الجهال المغرورين والعدد العديد من المشايخ الذين كانوا يظلمون الفقراء في ايامهم ولم يتسنَّ لهم ذلك مدة الاحكام المصريَّة وقامت البلاد مع الاتراك والانكليز لمحاربة الجيش المصري فلما رأى محمد علي باشا ان قوتهُ لا تكفي لمحاربة تركيا وانكلترا وان فرانسا الَّتي كانت تعدهُ بالمساعدة لم تفِ بوعدها وتركتهُ ساعة الحاجة مع انها كانت تغريهِ على معاداة الانكليز ومناوأتهم اضطرَّ إلى التسليم بمطالب الدولة الانكليزيَّة والرجوع عن املاك الدولة التركيَّة وعلم ان الاغترار بمواعيد الفرنساويين والاتكال عليهم ساعة الشدة من آيات الجهل المبين فعاد عن بلاد الشام وسواها وعادت الامور إلى ما كانت

عليهِ وزاد البلاء لاسباب ذكرناها واخرى سوف نذكرها.

وكأن الاتراك لما عادوا إِلَى امتلاك الشام رأوا ان يعوّضوا ما فاتهم في السنوات التسع ٱلَّتي حكم فيها رجال الدولة المصريَّة فبالغوا في تحقير المسيحيين وانماء اسباب البغضاء بينهم وبين المسلمين وكانت الحزازات في الصدور من ايام ابرهيم باشا لانهم ظنوا ان النصارى تجاوزوا حدود الادب في طلب المساواة بالمسلمين وحسدوهم على تقدمهم في المراكز الاميريَّة وفي صناعتهم وتجارتهم واضمروا لهم السوء وساعدهم على ذلك تحريض الاتراك لهم سرًّا وعلنًا . واضطر المسيحيون في المدن إِلَى العود لملابسهم وحالتهم القديمة وكثر التعدي عليهم من الرعيَّة والحكومة وصارت حالتهم شديدة الضنك وانبث العمال الاتراك في كل ناحية يحرضون الناس على معاداة النصارى كانما هم عولوا مدة غيبتهم على اتباع هذه السياسة وابقاء البلاد على التحزب والتعصب حتى اذا عاد ابرهيم باشا او غيرهُ إِلَى الشام وعصاهم بعض اهلها كان البعض الآخر معهم بداعي الحقد والحسد والتعصب الديني. كل هٰذا كان يجري وضباط الانكليز في البلاد لم يبرحوها فكان الذي يشكو امرهُ اليهم ويعرفهم بحكايتهِ ينصف في الحال ولكن الاهالي لجهلهم وعدم علمهم بالامور كانوا يظنون ان الانكليز والاتراك سواء ومع ان رجال الدولة الانكليزيَّة هم الذين ساعدوا الاتراك على العود إِلَى امتلاك البلاد فلم يفتإِ الاتراك مدة وجود الجيش الانكليزي في الشام يفهمون الاهالي بكل حيلة انهم انجس الناس وارداهم واكثرهم ظلمًا وكان الموارنة لسوء حظ البلاد وحظهم يعلمون الناس ان هؤلاء

الانكليز كفار ليسوا على دين مارون يجب على ابناء الطائفة المارونيَّة ان يقاوموهم ويضادوهم اينما حلوا حتى انهم لما التجأ بعض مشايخ بيت الخازن الى جناب الاميرال نابير قصد انصافهِ من الظلم نقموا عليهِ وجاهر بطريركهم بعدوانهِ وضادوهُ بكل ما في قوتهم واتفق معهم الاتراك على مضادة الانكليز الذين احسنوا اليهم كل ذلك الاحسان فكافأوا معروفهم بالخيانة وقابلوا مروءتهم بالكفر وردوا جميلهم بالدسائس والاكاذيب لاسباب لا تخفى على اللبيب ولو رزق الله ابناء البلاد عقلاً في تلك الايام لافهموا الدولة الانكليزيَّة ما نابهم من الظلم على يد الاتراك بدل ان يوالوا الاتراك على اخفاء الحقائق عنهم ولكنهم سعوا الى حتفهم بظلفهم وظهر من نتيجة جهلهم بعد ذلك بمدة قصيرة من المذابح والاهوال ما يشيب لهولهِ الاطفال

وكان سفير الانكليز في الاستانة يومئذٍ اللورد ستراتفورد دى ردكلف رجلاً حازم الرأي كثير الفطنة محبًّا للخير شفوقًا على النصارى المظلومين يعرف عن الاتراك كل ما تهم معرفتهُ فارسل امرًا الى عمال دولتهِ في بلاد الشام يقول فيها ان دولتهم عاونت جلالة السلطان على امتلاك البلاد ٱلَّتي ضاعت من قبضتهِ لانها تنازع كل مختلسٍ ياخذ من بلاد السلطان شيئًا ما دامت الدولة حليفتها وينهاهم فيهِ عن التداخل في شؤون البلاد ويعلمهم ان يوم رحيلهم عن الشام قريب ويقول في آخر المنشور انهُ اذا قدمت لهم شكوى من احد الاهالي فعليهم بعرضها على حاكم البلاد التركي واخطارهِ بها في الاستانة فكان كلما جاءهُ خبر مظلمة يسعى برفعها في الحال ولو طالت مدة وجود

العساكر الانكليزيّة في بلاد الشام لكانت البلاد في خير ونعمة ولكنها تبعت الجنود المصريّة وتركت البلاد والعباد للاتراك يعيثون فساداً ويظلمون ويبغون

ثم تحولت الانظار الى نوع حكومة لبنان فعاد الاتراك الى نغمتهم القديمة وطلبوا ان يكون الوالي عليهِ منهم فعارضتهم الحكومة الانكليزيّة في ذلك واضطرتهم الى اعادة الامر الى الامراء الشهابيين ظنّاً منها بان ذلك يعود ببعض الخير على النصارى ويمنع دخول المفاسد والمظالم التركيّة الى لبنان وكان الامير بشير شهاب الشهير الى ذلك الحين حاكم لبنان الرسمي فرأى اولياء الامر ان بقاءهُ على الامارة لا يجوز لانهُ كان واولادهُ في خدمة ابرهيم باشا فطلب اليهِ ان يسلم نفسهُ للسلطان ففعل ونفي الى مالطة ولذلك يعرف باسم الامير بشير المالطي الى اليوم وعين بدلهُ الامير بشير قاسم شهاب فسرّ النصارى تعيينهُ وساء الدروز لان آل شهاب كانوا قد اعتنقوا الدين المسيحي واظهر امراؤهم في آخر الامر كرهاً للدروز وعزماً على ابطال سلطة مشايخهم وخصوصاً في آخر ايام الامير بشير المالطي الذي اذاقهم المرّ والاهوال بعد ان كان صديقهم لا يعمل الاَّ برأي زعيمهم الشيخ بشير جنبلاط. والامير بشير هذا هو الذي كان السبب في قتل الشيخ بشير جنبلاط وهو الذي خرب ديارهُ ودكّ حصونهُ واخذ اموالهُ وفعل مثل هذا الفعل ايضاً في مشايخ بيت ابي نكد وبيت العماد وهم من مشايخ الطبقة الاولى في طائفة الدروز. ولو ان الامير الجديد احسن السياسة لكان خضوع الدروز لاحكامهِ من الامور السهلة ولكنهُ اشتهر بالقوة

والفظاظة في معاملته لأكابر الدروز وجعل يهينهم ويشتمهم كلما حضروا اليه في امر ويتوعدهم بسلخ املاكهم ونزع كل سلطة منهم ويعاملهم معاملة لا تطيقها نفوسهم ولم يتعودوها من قبل ذلك الحين · فهاج من جراء ذلك الدروز هياجاً كبيراً وجعلوا يتشاورون في الامر ويعملون على شق عصا الطاعة لا سيما وقد كثر عليهم الطلب بجمع المال الكثير لسد جوع الحكومة التركية وعمالها الذين ما صدقوا ان عادوا إلى امتلاك الشام حتى صاروا يبحثون عن كل وسيلة تمكنهم من اشباع بطونهم واختلاس اموال الناس وتخطف امتعتهم وحرمانهم من لذة العيش ولم يرَ الامير الجديد بداً من تلبية طلب الولاة الاتراك وجمع الاموال المطلوبة قياماً بتعهده في جمع الاموال ومحافظة على مركزه لانهُ كان يعلم ان الذي لا يُشبع بطن الاتراك لا يبقى على الحكم زماناً في دولتهم · وبدأ الناس يشعرون بثقل الحمل الذي عاد إلى ظهورهم ويرون الفرق بين حكومة الاتراك وحكومة ابرهيم باشا حتى ان بعضهم جعل يخابر في اعادة السلطة المصرية ولكن ذلك امر ضاع من قبضتهم لم يحافظوا عليهِ في حينهِ بل اغتروا بدسائس الاتراك وانقادوا لحيلهم فوقعوا في شر جهلهم وعدم تبصرهم

وفي هذا الحين بدأت الدسائس الدولية تهيئ البلاد للثورة والحرب فبينما كان الاتراك يهيجون الدروز على النصارى والنصارى على الدروز قصد الانتقام من الطائفتين وصيرورة الجبل إلى قبضتهم رأت الدولة الافرنسية ان آمالها خابت في بلاد الشام مرتين على يد الانكليز فمرة طردت عساكرها منها على عهد نابوليون بونابارت ومرة

عاد ابرهيم باشا عنها وكانت هي العضد الوحيد لهُ بين دول اوروبا ولهذا رأت ان تعمل على تقوية حزبها وزيادة نفوذها توصلاً الى امتلاك البلاد بقوة هذا الحزب ومساعدتهِ في احد الايام ولما كان الموارنة ينتمون اليها وهم تحت حمايتها كما تقدم صار قناصل فرانسا يروحون ويجيئون إلَى دار البطريرك الماروني ويخابرونهُ في ما يريدون وارسلت اليهِ الدولة الافرنسيَّة في ذلك الحين نصف مليون فرنك لينفقهُ في سبيل غاياتهِ وغاياتها وكان ارسال هٰذَا المال على طريقةٍ علانيَّة فجعل الموارنة يفتخرون بالامر ويتباهون بمساعدة فرانسا لهم ويقولون انهم سوف يسحقون الدروز سحقًا وينزعون كل سلطةٍ من ايديهم وكان الامراء الشهابيون قد صاروا تحت سلطة البطريرك واعوانهِ وبدأوا بمساعدتهِ على ما كان ينوي من مدّ نفوذهِ ونفوذ فرانسا ولكنهم لم يعلموا بالدسائس الافرنسيَّة الاَّ بعد حين . واصدر بطريرك الموارنة في ذلك الحين منشورًا إلَى اهل طائفتهِ شدد عزائمهم فيهِ على المجاهرة بالعدوان اذ امرهم بانتخاب اثنين منهم في كل قرية يكونان مسئولين لدى الحكومة عن كل اعمالها ويقضيان في كل مسائلها فقابله النصارى بالتهليل والتكبير وضرب البنادق وفرحوا لنشرهِ فرحًا زائدًا وبالغوا في اظهار السرور والشماتة ومشايخ الدروز امامهم ناقمون على ضياع السلطة منهم يحسبون الحساب لقيام القوم عليهم لان هذه السلطة كانت مختصة بهم ورثوها عن آبائهم واجدادهم فاشتدَّ النفور وبلغ العداء حدهُ وكان ذلك مقدمة المذابح الهائلة والفظائع المنكرة والدسائس الدنيئة والامور الرديئة ٱلَّتِي ظلَّت تعمل في بلاد الشام

حوالي عشرين عاماً وانتهت بانتهاء حوادث سنة ١٨٦٠ الّتي سيأتي ذكرها

ولحظ قناصل الاجانب في بيروت ان الدسائس الّتي ذكرناها ستؤول إِلَى الحرب يوماً فحذروا واندروا وبعثوا إِلَى دولهم بواقعة الحال ولما سئلت الحكومة التركيّة عن تلك الامور انكرتها وادعت ان الامن مستتب وان البلاد في هناء ورخاء لم ترَ نظيرهما وكانت تخشى ان تعرف الدول مكايدها وسوء ادارتها فتعود إِلَى مساعدة الدولة المصرية او غيرها وتسلخ البلاد منها فتجاهلت سر الدسائس الّتي كان عالما وعمال فرانسا يلقونها وبعثت إِلَى كل حاكم في بلاد الشام ولبنان بنوع اخص تأمرهم بكتابة التقارير الكاذبة عن راحة الاهلين وسكون البلاد ونجاحها في ظل الدولة التركيّة ونقول ان الناس على اختلاف اديانهم واحوالهم يشكرون الله الذي خلصهم من يد الحكومة المصريّة ورحمهم بعود الدولة التركيّة وشددت على الحكام باكراه الناس على ختم هذه التقارير وبنوعٍ اخص في بلاد النصارى فدار العساكر في كل صوب على الناس يضطرونهم بالضرب والحبس والتعذيب والاهانة او بالتمليق والتمويه والحيلة إِلَى ختم هذه الاوراق فختموها وقدمتها تركيا للدول دليلاً على تعلق الناس بها وحسن ادارتها . وهذه عادة متمكنة في الاتراك يظلمون الناس ويستحلون دماءهم واعراضهم واموالهم ثم يدورون على الباقين منهم ليختموا لهم على التقارير الكاذبة القائلة بسرور الناس من عدلهم وسوف نجيء على ذكر هذه التقارير في ما يلي وننقل بعضها بالحرف الواحد مع الكتب الّتي صحبتها للحكام حتى

يرى القارئ كيف تتصرف هذه الدولة بالآمنين في ظلها وكيف تخدع الذين يطالبونها بالعدل من اهلها

قلنا ان القناصل بعثوا بالتقارير إلى دولهم ولم تجد نفعًا لان الاتراك ابرع الناس في الاختلاق والتمويه وتضليل العقول واخفاء الحقائق فسدلوا الستار على قبائحهم في الشام واقنعوا اوروبا بصحة تلك الاسماء والاختام . الَّا ان بعض الوكلاء ظلوا يحذرون دولهم من عاقبة تلك الادارة السيئة وكان في مقدمتهم قنصل دولة روسيا وقنصل دولة انكلترا وهو يومئذٍ الكولونل روز البطل الشهير الذي يرن ذكرهُ في جوانب الشام إلى هذه الايام ومن ضمن ما قالهُ هٰذا الرجل العاقل ما ترجمتهُ بالحرف الواحد « ان سوء الادارة التركيَّة واجتهاد عمال السلطان في زرع بذور الشقاق والشحناء بغية ايقاع الطوائف بعضها ببعض واكتساب النفوذ من هٰذا التنافر صار إلى درجة يخشى معها من حرب تروح فيها الارواح بلا ثمن . ثم ان اكليروس الموارنة يظهرون ان في نيتهم امتلاك السيادة في لبنان ولو ادَّى ذلك إلى الحرب » وكانما هٰذا الرجل كان ينبئ بالامور السوداء التي قرَّحت الآماق وطبقت بذكرها الافاق وادت إلى ضياع الارزاق وقطع الاعناق والعناء الذي حلَّ بالباقين بعد تلك المذابح من فقد الاهل والرفاق . امور لا تطاق وشرور نهى عنها الحكيم الخلاق

كل هٰذا والدروز الذين نكلوا بعدئذٍ باعدائهم لم يحركوا ساكنًا ولم يظهروا غير حب البقاء على حالهم الاولى فصاروا ينظرون إلى هذه الامور ويحسبون الحساب للمستقبل ويتهيأُون للدفاع او للحرب واما

النصارى فاسكرتهم جرأة البطريرك ومساعدة الامير بشير لهم ولم ينظروا في الغيوم ٱلَّتي كانت تتلبّد فوق رؤوسهم و بالتبع اقتصروا على معاندة الدروز واكتفوا بذلك ولكنهم حاولوا قتل كل من لم يكن على معتقدهم فاغروا الامير بشيراً على قفل مدارس الانكليز والامير كان في الجبل ومع ان نعمان بك جنبلاط سار إِلَى بطريركهم و رجاهُ ان يساعدهُ على ابقاء هذه المدارس لنفع الاولاد من الطائفتين فلم يقبل بغير ما رآهُ وكان يومئذٍ مطران بيروت الماروني عند البطريرك فقال لنعمان بك انهُ سوف يبطش بكل درزي ويخضع كل هرطوقي عن قريب لارادتهِ فعاد نعمان بك وهو من اشرف اشراف الدروز وقص الحكاية على اعوانهِ وذويهِ فامتلأَت الصدور غيظاً وحنقاً ولم يعد في امكان الدروز الصبر على كل ذلك العدوان فعمدوا إِلَى مكاتبة اهل طائفتهم بالامر وطلبوا إِلَى كل درزي ان يكون على اهبة الحرب اينما كان وهذه عادتهم في الملمات ينضمون إِلَى امرة مشايخهم و يتحدون على اعدائهم وما نجحوا الاَّ بهذا الاتحاد وهذا الانقياد الغريب لرؤساء طائفتهم وما عرف عنهم من البسالة وحب الحرب والمقدرة على احتمال مشاقها واهوالها

وكأَنَّ البطريرك آلى على نفسهِ ان يكون السبب في الحرب وسفك الدماء فاصرَّ في تلك السنة على عدم دفع الاموال الاميريَّة عن الموارنة حسب العادة وهو يعلم ان غاية الاتراك من حكم البلاد جمع اموالها وبدأَ رجال هذه الطائفة يقولون في انفسهم ان ليس للسلطان حق في جمع المال منهم وكان الدروز في ذلك الحين اكثر الناس

ميلاً إلى تلبية مطالب الدولة لانهم خافوا ان تنصر النصارى عليهم مع كثرة عددهم وارادوا ان يستميلوها بهذا الخضوع تخلصاً من سيطرة البطريرك عليهم وفراراً من غيظها ففعلوا بذلك فعل الحكماء العاقلين وظهر الفرق بينهم وبين اخصامهم الذين سلكوا مسلك التهور والعداء المفسر . ثم ان الدروز جعلوا يختمون اعراضاً إلى الباب العالي مآله انهم أكثر الناس ميلاً إلى طاعة السلطان خلافاً لاخصامهم وانهم حاربوا مع سلاطين المسلمين في كل الحروب وذكروا ما كان من مقاومتهم لابرهيم باشا في المدة الاخيرة وطلبوا الى الباب العالي في آخر الامر احد امرين اما ان يولي على الجبل واحداً من امرائهم او ان يرسل والياً تركياً عليهِ من الاستانة وكانوا يعلمون ان الاتراك يبذلون النفس والنفيس في سبيل تحقيق هذه الامنية . وظن الدروز بذلك انهم يستريحون من حكم البطريرك والامير بشير قاسم وما حسبوا ان الاتراك مع ما اشتهر عنهم من الميل إلى وضع اليد على الجبل كانوا يؤثرون في تلك الاحوال ان تبقى اسباب الجفاء والمباغضة وان تبطش احدى الطائفتين بالاخرى وهي قاعدة تتفرج عليهما حتى اذا ضعف الجبل من وراء الحرب الاهلية وظهر للملإِ عدم كفاءة الحكام اللبنانيين لادارة شوون جبلهم عمدت إلى تحقيق رغبتها وعينت عليهِ احد طغاتها

واشتد الكره بين الطائفتين لسبب آخر علتهُ التعصب الديني ايضاً ذلك ان الموارنة اكتسبوا في ايام الامير بشير الكبير نفوذاً عظيماً حتى انهم داسوا حقوق الروم والبروتستانت وغيرهم من الطوائف

الاخرى الَّتي لم توافقهم عَلَى مذهبهم . ولما علم بطريركهم ان الانكليز قادمون مع جيوش الاتراك في سنة ١٨٤٠ إلَى بلاد الشام اسرع إلَى تلبية قنصل فرانسا فاعلن ان الانكليز اكفر الكافرين وحرم كل واحد يختلط بهم اقل اختلاط وقال باطفاء عيني كل نصراني يرى بعينهِ مراكبهم . وكان الامير بشير قاسم مثل سلفهِ بطاعة الموارنة فلما اقام عساكر الانكليز مدةً في لبنان سرى بين الدروز اعتقاد انهم من آل حمزة وكان الباعث عَلَى هذا الاعتقاد بعض اكابرهم الذين رأوا ان يحالفوا الانكليز على الموارنة وصار الدروز من ذلك اليوم اصدقاء الانكليز ورجالهم في بلاد الشام وانتبهت انكلترا إلَى هذا الامر فرضيت عن توددهم وصيرتهم حزبها في البلاد وصار قنصل فرانسا من ناحية والبطريرك من ناحية أُخرى يحثون الناس عَلَى كره الانكليز وكل من والاهم فكان ذلك باعثاً على زيادة التضاغن بين الدروز والموارنة على ما تقدم

واخيراً ظهرت نتائج كل هذه المقدمات وبدأَت الحرب . وكان ابتداء القتال في اليوم الرابع عشر من شهر سبتمبر سنة ١٨٤١ ولم تسترح البلاد منهُ من ذلك اليوم إلَى ان مرَّت عشرون سنة كانت البلاد فيها فوضى والطائفتان في نزاع مستمر . وتحرير الخبر ان بعض شبان دير القمر نزلوا إلَى الوادي الفاصل بين بلدتهم وبين قرية بعقلين ودخلوا ارضاً لشيخهم ناصيف بك ابو نكد فاصطادوا فيها طيراً وقام لهم الحراس الدروز من اتباع ناصيف بك فاوسعوهم ضرباً ولكماً وطردوهم من الارض ولما عاد هؤُلاء الشبان إلَى دير القمر وآثار الضرب ظاهرة

عليهم هاج ذووهم واصحابهم واسرع نحو ستين رجلاً منهم الى مكان الخصام وبدأُوا باطلاق النار على الدروز وكان هؤلاء قد احسوا بان النصارى بعثوا إِلَى دير القمر يطلبون المدد ففعلوا فعلهم وجمعوا حوالي مايتي رجل وانتشب القتال بين الفريقين فقتل من النصارى خمسة رجال وجرح ثمانية وقتل من الدروز ستة عشر رجلاً وجرح ستة عشر آخرون وكان الدروز يتجمعون من القرى المجاورة على رجال النصارى حتى بلغ عددهم حوالي ستماية رجل و رجال دير القمر من النصارى يتأهبون لمعاونة اخوانهم فحدث من حسن الحظ ان الكولونل روز قنصل انكلترا العام وقتئذٍ كان مارًّا في تلك الانحاء وسمع بالامر فاسرع من فورهِ إِلَى محل القتال واستصحب معهُ شيخًا من مشايخ الدروز حتى اذا وصل القوم ورأَى الرصاص يطلق من الجانبين دخل بين الصفين مخاطرًا بحياتهِ ورفع يدهُ للقوم فعرفوهُ من الناحيتين وصار يصرخ فيهم ان ابطلوا القتال واسمعوا قولي فرضخوا لاشارتهِ في الحال لانهُ كان رجلاً مهابًا عظيم القدر معروفًا بالتعقل والبأْس في جميع انحاء البلاد و بطل القتال فتقدم الكولونل روز الى زعماء الطرفين واقنعهم بوجوب المصالحة فتصالحوا وعاد كل فريق إِلَى محلهِ وقد دمل الجرح عَلَى دغل وكانت هذه اول مواقع الحرب العظيمة ٱلَّتي لم تطفأْ نارها الاَّ في سنة ١٨٦١

وكأَنَّ النصارى آلوا عَلَى انفسهم ان يجلبوا عَلَى ذاتهم كل اشكال البلاء فجعلوا يتعرَّضون للدروز ويعتدون عليهم في انحاء أُخرى من البلاد في حين ان البطريرك الماروني وعمالهُ كانوا يأْتون كل حيلةٍ

للتسلط عَلَى العقول واستلام الاحكام وسحق الدروز وابطال امتيازاتهم فجعل الدروز يتأهبون للقتال الشديد ودارت المخابرة بين مشايخهم في كل اطراف البلاد وامتلأَت المسالك برسلهم الذاهبين والآيبين وهذه عادتهم يتفقون سرًّا عَلَى نوع القتال واحوالهِ قبل الشروع فيهِ بين ان اعداءهم يقصدون من غير استعداد فياخذونهم عَلَى حين بغتةٍ ويفاجئونهم بكل بلاءٍ شديد. قلنا ان النصارى اعتدوا عَلَى الدروز من بعد الحادثة ٱلَّتِي ذكرناها ذلك انهم قتلوا ثلاثة من الدروز في جزين ذهبوا اليها من قبل آل جنبلاط ليجمعوا اجر املاكهم وارضهم منها وكان الدروز قد تأثروا من قتل الذين وقعوا في المعركة ٱلَّتِي ذكرناها وبينهم اربعة من بيت عماد وهم عائلة شهيرة تقرب من بيت جنبلاط في الوجاهة ولها شهرة عظيمة في البسالة فجعلوا يعتدون عَلَى النصارى اينما وقعوا بهم حتى انهم القوا الرعب في القلوب وارتكبوا اكثر من اربعين جريمة ما بين قتل ونهب في مدة شهر واحد حتى صار انتشاب الحرب العموميَّة من الامور المحتمة ولكن لم يخطر ببال النصارى وقتئذٍ ان الدروز قضوا ذلك الشهر كلهِ في الاستعداد والتأهب وضم قواتهم بعضها إِلَى بعض من كل الانحاء وهم ساهون لاهون حتى اصبحوا في يوم ١٣ اكتوبر (ت ١) من سنة ١٨٤١ ورأَوا بلدتهم — دير القمر — محاطة بالدروز من كل جانب فكثر القلق وساد الاضطراب ورأَى الناس الموت عَلَى مقربةٍ منهم فكانوا يسمعون اناشيد الدروز ويصرخون من الخوف ويتوجعون من الاضطراب واولادهم ونساؤُهم يبكون بكاءً يفطر المرائر فتجمعوا بسلاحهم الكامل واقروا عَلَى المقاتلة من داخل

اسوار البلدة وظلوا فيها اربعة ايام ينتظرون هجوم الدروز عليهم والقلوب ترتجف من الخوف اذ كانوا يرون اعدائهم يحرقون المزارع والمنازل المجاورة للبلدة وينهبون كل ما فيها وهم لا يجسرون عَلَى الخروج اليهم لكثرة عددهم وانتظام جيوشهم تحت قيادة المشايخ من بيت ابي نكد وعماد · وكان الامير بشير قاسم حاكم جبل لبنان في دير القمر وهو عدو الدروز يرى بعينهِ تلك الامور ولا يجسر عَلَى قولٍ ولا عمل حتى زاد الكرب واشتد الضيق واحترقت كل املاك النصارى في خارج البلدة وقتل كثيرون منهم ممن كان ساكنًا في مزارعها او قادمًا اليها من سفر وانقطع ورود الماء الى مطاحنها بتدبير مشايخ الدروز فتقدم وجوه النصارى إِلَى الامير وسالوهُ ان يبدي رايًا او يأْتي فعلاً ويمنع فتك تلك الجموع بالنصارى اذا امكن لهُ ذلك فارسل الامير محمودًا ابن الامير بشير الكبير يرجوهم ان يرجعوا عن البلدة وان يخابروهُ في ما يريدون وهو يخرج اليهم إِلَى عين السوق اذا شاءوا فلم يسمعوا لهُ قولاً وتقدموا على المدينة وكان في داخلها اناس منهم من بيت ابي نكد وهم اصحاب دير القمر واسيادها من عهدٍ بعيد كانوا في بيوتهم لا يخرجون منها مع كل ما حدث من الامور إِلَى ان رأَوا اشارة من معسكر الدروز فصاحوا في الحال جذلاً وهجموا على من كان معهم في دير القمر من النصارى مع الذين كانوا كامنين في بيوتهم من اعوانهم فقتلوا اربعين نفسًا واقلقوا البلدة بصياحهم وهجومهم وكان الدروز المحيطين بالبلدة في ذلك الحين يتقدمون عليها و يضرمون النار في بيوتها فلما رأَى النصارى الويل محدقًا بهم من داخل بلدتهم

ومن خارجها اضطربوا اضطراباً لا نظير لهُ وصار النساء والاطفال يركضون هرباً من فتك الدروز بهم والرجال يتجمعون في اواسط البلدة ليمكن لهم الدفاع عن انفسهم وقد رأوا المنية بعيونهم وايقنوا ان الآخرة جاءت فعزموا على الدفاع حتى يقتلوا عن آخرهم وتركوا الدروز يحرقون و ينهبون في البيوت والمخازن المتطرفة فانحصرت قوتهم في الميدان الكائن في وسط المدينة و بينما هم على وشك الشروع في اطلاق الرصاص اذ سمعوا بقدوم كبير من بيروت فاطمانت خواطرهم وهدأ روعهم وحمدوا الله على الخلاص من هاتيك الجموع وكان ذلك الكبير ايوب باشا جاء من قبل الوالي التركي بناء على طلب الكولونال روز قنصل انكلترا الجنرال الذي حضر معهُ ايضاً بقصد اطفاء نار الفتنة . وكان هٰذا الرجل الحازم (الكولونال روز) قد سمع بالحكاية من احد الفارّين في يوم ١٤ اكتوبر (ت ١) سنة ١٨٤١ فقام إلى السر عسكر والوالي ولم يتركهما حتى ارسلا معهُ ايوب باشا هٰذا وحضرا على ما تقدم فبطل القتال من الناحيتين

ولكن وجود ايوب باشا والكولونال روز في دير القمر لم يفد غير فائدة وقتية لان الدروز كانوا قد صمموا على القتال إلى ان يفضّ بحد السيف كل خلاف وظلّ النصارى في البلدة يرجون ايوب باشا ان يرجع الدروز عنهم وان يامرهم باعادة مياه المطاحن إلى مجاريها لان حبسها اضرَّ بهم ضرراً كبيراً فامرهم بذلك ولم يطيعوا لهُ امراً وظلوا يقتلون كل من وقع في ايديهم من النصارى ويحرقون و ينهبون والامير والباشا في دير القمر لا يدرون ماذا يعملون حتى صدر الامر

إِلَى ايوب باشا بالرجوع إِلَى بيروت وأُرسل مكانهُ تركي آخر اسمهُ سليم بك مع قاضي بيروت وتحصلها فلما وصل هؤُلاء اصدروا امر السر عسكر سليم باشا إِلَى الامير بشير بالانسحاب معهم من دير القمر فترا كض النصارى عَلَى اقدامهم واعلموهم بالخطر العظيم المحدق بهم فحاول هؤُلاء الموظفون ارجاع الدروز عن غيهم ولم يمكن لهم ذلك وكانت فرق الدروز تتوارد عَلَى دير القمر من حوران ووادي التيم وكل الانحاء وجيشهم يقوى يومًا بعد يوم والخطب يتفاقم والناس في ضيق شديد من جراء ذلك . وسمع بطريرك الموارنة بهذه الامور فقام وقعد وارغى وازبد واقسم انهُ لياخذنَّ لبني جنسهِ بالثار ويذود لهم الدمار ويحمي الديار وكان مريضاً عَلَى سريرهِ فابى الاَّ ان يقوم لمحاربة الدروز عَلَى اكتاف الرجال وبدأَ بالاستعداد وجمع الاهبة والرجال . واصدر مطران زحلة للروم الكاثوليك منشورًا إِلَى ابناء طائفتهِ يدعوهم فيهِ إِلَى الجهاد ويوصيهم بالحرص عَلَى نصرة الدين ومحاربة الدروز اينما حلوا وينهاهم عن ارتكاب المنكر والتعرض للنساء ولكنهُ يبيح لهم القتل والحرق والسلب لانهُ عدَّ ذلك من لوازم الحرب الدينيَّة . والتهبت نيران الثورة في الجبل كلهِ فلم يعد للقوم حديث غير الحرب واشتغلت كل نفس بالاستعداد للهجوم والدفاع

وحصلت مناوشات كثيرة بين الدروز والنصارى في هذه المدة سناتي عَلَى ذكرها بالاختصار وكان النصر في اكثرها للدروز ذلك لان النصارى كانوا فرقًا واحزابًا لا تنضم منهم قرية إِلَى أُخرى الاَّ بعد الجهد الجهيد ولان الدروز كانوا يدهمونهم عَلَى غير انتظار منهم

ويأتونهم بقوة تزيد عن قوة القرى ٱلَّتِي يفاجئونها بالهجوم . وكانت غاية النصارى الاولى من هذه الحروب الافراج عن دير القمر لانهم سمعوا بمصاب اهلها وكانت هي مدينتهم الكبرى ومركز تجارتهم وحركتهم فجعلوا يهتمون بذلك ويزحفون إِلَى ناحيتها ولكنهم لم ينجحوا كثيرًا لان الدروز كانوا اقوى منهم ولان بعض النصارى من طائفة الروم الارثوذكس كانوا ينضمون إِلَى الدروز قسرًا واضطرارًا ويحاربون الموارنة . وبعضهم كان يكره الموارنة لتغطرسهم واعتبارهم كل نصراني عَلَى غير مذهبهم الماروني هرطوقيًّا يجوز قتله وسلبهُ ولطالما قاسى الروم والبروتستانت الاهوال من الموارنة في ايام الامير بشير الاول والثاني فلهذا انضمَّ بعضهم برضاهُ إِلَى الدروز والبعض الآخر خوفًا من قوة المشايخ كما تقدم . واخضع الدروز القرى النصرانيَّة كلها في مدة عشرة ايام وحرقوا اديرتها وكنائسها واستولوا عَلَى اموالها كما سيجيء . كل هٰذَا وجموعهم واقفة حول دير القمر واهلها يستغيثون وليس من يرحم حتى اذا مرَّ عَلَى هٰذَا الحال ثلاثة اسابيع طلب مشايخ الدروز الى سليم بك ومن معهُ من الموظفين ان يأمروا النصارى بتسليم اسلحتهم اليهم وتهددوا البلدة بالدمار وقلع الآثار وسبي الحرائر والابكار اذا لم يجب هٰذَا الطلب بغير ان يضطروا إِلَى التكرار . فخاف النصارى عاقبة الامر وترامَوا عَلَى اقدام سليم بك فاظهروا لهُ خوفهم من غدر الاعداء بهم اذا سلموا السلاح ورجوهُ ان يرسل إِلَى بيروت بطلب خمسماية جندي من جنود الحكومة تقيهم شر الغدر فيسلمون لهم السلاح والنفس منهم طيبة فاجابهم هٰذَا التركي ان طلبهم صعب لا يجاب ولم يسمع الناس

إِلَى الآن بمثل هٰذَا الجواب كيف ان حكومة مكلفةً بحفظ الامن في بلادها ترى الاهالي يقومون بعضهم عَلَى بعض والعساكر عندها الوفًا مؤلفة فلا ترضى بارسال بعضهم لوقاية الذين في الخطر . ولكن هذه الامور كانت كلها بامرها ودسائسها وسوف يجيءُ بيان ذلك في ما يلي ان شاء الله . فلما رأى النصارى ان المركز حرج وان الدروز مصممون عَلَى استلام اسلحتهم وعرفوا انهم عَلَى الحالين سيقتلون اذا ظلوا على العناد طلبوا إِلَى المحاصرين ان يعطوهم الامان ويتعهدوا لهم بعدم الاقدام عَلَى قتلهم فيسلمون اسلحتهم في الحال فقبل الدروز بهذا الشرط وكتب مشايخهم صكوك الامان وهذه صورتها بحروفها « عليكم امان الله وراي الله وراي سيدنا محمد رسول الله وراي سعادة سليم باشا وثم راينا عَلَى دمكم ومالكم وعرضكم » . وظهر للنصارى من نسق هذه الكتابة ان الدروز ينوون غير هٰذَا الامان ولكنهم فوضوا الامر لله وسلموا اسلحتهم وهم في هم كبير وقلق كثير . ولم يمضِ عَلَى هٰذَا زمان طويل حتى اوعز الاتراك إِلَى الامير بشير ان يترك البلدة وكان فيها اسيرًا لا فائدة منهُ لاهلها فرضي بذلك وخرج ومعهُ بعض اعوانهِ فلقيهُ الدروز في الطريق واهانوهُ اهانة كبرى واخذوا منهُ سلاحهُ بالعنف بعد ان جرحوا اصابع يديهِ ولم يسمحوا لهُ بالمرور من بينهم حتى اخذوا عمتهُ واكثر ثيابهِ وثياب الذين معهُ وتركوهم عراة حفاة واطلق بعضهم عليهِ الرصاص فاخطأهُ وكان كل ذلك بعد تعهد الدروز بعدم التعرض لهُ في طريقهِ واعطائهِ الامان بخط زعمائهم وختم اكابر مشايخهم ولكن القوم نسوا كل شيءٍ في تلك الايام ما خلا

الاحقاد وما صدقوا ان خرج الامير من دير القمر حتى دخلوها وذبحوا العدد العديد من اهلها ذبح الغنم حتى ان بعض المشايخ من آل ابي نكد نكلوا بالذين قضوا العمر في خدمتهم من النصارى ولم يرحموا كبيراً ولا صغيراً فنفر منهم النصارى نفوراً عظيماً وعولوا من ذلك اليوم عَلَى ان لا يعودوا إِلَى تحت سيادتهم ولو كلفهم ذلك فقد ارواحهم وقد تمَّ ذلك وسقط بيت ابي نكد العظيم من ذلك اليوم وطردوا من دير القمر وهم الآن مثل بقية الدروز مع ما سبق لهم من ايام العز والسودد

قلنا ان الدروز قتلوا الذين امنوهم على ارواحهم في ذلك الحين وداروا على البيوت والمخازن فنهبوها وحرقوها ولم يتركوا على النساء حليةً ولا رعوا اهل الامان حرمة ولا اخذتهم على عاجز او طفل شفقة ووضعوا يدهم على املاك النصارى فصيروها لهم واتوا كل موبقة ما خلا هتك الاعراض فالحق يقال ان هذه الطائفة تراعي العرض وتصونهُ في احرج الاوقات وتوصل اذاها إِلَى كل نفس وكل شيء ما خلا النساء وهو فضل ينشرح لهُ الصدر حين قراءة ما تقدم من الفظائع والاهوال . عَلَى ان الذي حدث في دير القمر من المصائب في سنة ١٨٤١ لم يكن بالشيء الذي يذكر في جانب الذي تم فيها سنة ١٨٦٠ وهي سنة الهول والبلاء ولا يقاس بالذي جرى في انحاء سورية في تلك السنة السوداء ايضاً مما سنشرحهُ في هذا الكتاب وقد ضاق الصدر من ذكره قبل ان يجيء القلم عَلَى تفصيله

واما الذي حدث في القرى الاخرى اثناء محاصرة الدروز لدير القمر في شهري سبتمبر واكتوبر من سنة ١٨٤١ فنسردهُ هنا بالاختصار

الكثير منهُ الذي حدث في مزرعة الشوف عَلَى مقربةٍ من بيروت وهو ان فرقة من الدروز اغارت عَلَى القرية فهرب الرجال منهم وكانوا يظنون ان عوائدهم المعلومة تمنعهم من ايصال الاذى إِلَى النساء فابقوهنَّ فيها وقصدوا جزين لينضموا إِلَى اهلها فدخل الدروز القرية وحرقوا منازلها ونهبوا ما عَلَى النساء فيها واخذوا غلالها ووضعوا يدهم عَلَى ارزاقها وانتقلوا منها إِلَى القرى المجاورة فنهبوا كنيسةً وحرقوا ديرًا وملكوا كل ما وصلت اليهِ ايديهم وقتلوا عدة رجال وجرحوا نساءً كثيرات . ثم ساروا إِلَى جزين وكان قد وصل إِلَى هذه القرية فرقة غير هولاء المهاجمين جاؤُوها من جيش دير القمر تحت امرة الشيخ سعيد جنبلاط وكان اول فعالهِ انهُ ارسل إِلَى النصارى في القرية يطلب سلاحهم بدعوى انهُ مفوض من الدولة التركيَّة بذلك فصدقوهُ وقاموا بامرهِ وفي تلك الليلة خان العهد والمروءة وهاجمهم ليلاً فقتل منهم سبعين نفسًا وفرَّ الباقون في خوف ورعب عظيمين بعد ان نهبت اموالهم وتلفت حاصلاتهم واحرقت منازلهم وتعقبهم هٰذَا الشيخ إِلَى قرية بكاسين فدير مشموشة فبتدين القش فكان في كل بلدة يعد النصارى في اول الامر بالذود عنهم ثم يغدر بهم ويفتك بابريائهم وساعدهُ عَلَى ذلك اناس من المسلمين والمتاولة جاؤُا لمساعدتهِ من انحاء صيدا بتحريض الحاكم التركي وكانوا في كل بلدة يقصدون الاديرة والكنائس قبل سواها فينهبونها ويحرقونها ثم يدورون عَلَى المنازل فياخذون ما فيها ويحرقونها وكان في جملة القتلى عدد كبير من الرهبان والنساء والاطفال وفعلوا مثل ذلك في عين الجوزة وجرنايا وجرجوع وعبرا والدبيه وعين

تراز وشرتون والعرقوب وبلاد الشمار والجرد وغيرها من القرى في اقليم جزين واقليم التفاح وكلها قصتها واحدة من الخيانة والغدر ثم القتل والحرق والسلب وما يتبعها من آيات التوحش وفظائع الحرب الاهليَّة

وكان الامير بشير قبل خروجهِ من دير القمر قد رأى ان الدروز احاطوا بهِ وبيلدتهِ احاطة السوار بالمعصم وصاروا كلهم من اعدائهِ فارسل إلى القرى التي يكثر فيها النصارى في السواحل يامرها بارسال جيش منهم لمساعدتهِ على الدروز واجتمع فريق كبير منهم في بعبدا والحدث وغيرهما من القرى المجاورة لبيروت قيامًا بامرهِ فاحسَّ بهم الدروز وجاؤوا لمحاربتهم فكسروهم بعد القتال الشديد بمساعدة عسكر الاتراك الذي كان واقفًا على مقربة من المتحاربين بدعوى انهُ محافظ على الامن وكان هؤلاء الاتراك اذا رأوا نصرانيًا فارًّا للالتجاء بهم او مارًّا على مقربةٍ منهم يرمونهُ بالرصاص فيقتلونهُ حتى انهم لما فرت النساء إلى ناحيتهم وكان الدروز قد تركوهنَّ بدون ان يتعرضوا لهنَّ اتوا مع اولئك الفارّات الخائفات الامور البهيميَّة المنكرة وقتلوهنَّ واخذوا ثيابهنَّ عن ابدانهنَّ وعذبوا الاطفال تعذيبًا حتى صاح النساء في الدروز ان خذونا انتم واقتلونا ولا تسلمونا لهؤلاء الاتراك . كل ذلك ورجال هذه الدولة يقولون انهم ارسلوا هؤلاء العساكر ليحافظوا على الامن ويمنعوا الاعتداء وهذه عادتهم في كل حرب للنصارى مع بقية الطوائف يفتكون بهم وينصرون الاعداء عليهم وهم الذين يحرضون الاعداء على قتالهم ويقولون بعد كل هذا ان جيوشهم المظفرة ذهبت

لتحافظ على الامن وتمنع الاعتداء ولم تكن هذه عادة الحكومات في رعيتها ولا شيمة الحكام في الذين اقامهم الله للمحافظة على دمائهم واعراضهم واموالهم ولا سمع مثل هٰذا الغدر وهٰذا الجور عن سلاطين المسلمين وحكامهم في غير ايام الدولة التركيَّة

ولما مرَّ الامير بشير وهو قادم من دير القمر على الحالة الَّتي وصفناها رأَى اعوانهُ يقتلون ويعذبون والعساكر يفعلون ذلك على مرأًى من ضباطهم فهالهُ الامر ولكنهُ فطن إلَى نفسهِ وادرك سرَّ الحكاية ففاض الدمع من عينيهِ على ما رأَى من مصاب الامهات والاخوات اللائي كنَّ يندبنَ القتلى وينحنَ على الاقارب والاحباء وتفطرت مرارتهُ اذ سمع صراخ الاطفال وعويلهم ورأَى الدم يسيل من جوانب الاولاد والبنات والعاجزين وهم ينتحبون ويطلبون الرحمة من الله ومن عساكر الاتراك وهؤلاء الوحوش الضارية يضحكون لبلواهم ويسرون بتعذيبهم وقتلهم فصار الامير المسكين يبكي مع الاطفال والنساء بكاءً مرًّا وجاء إلَى قائد تلك العساكر التركيَّة فرجاهُ باسم الله والسلطان ان يرحم اولئك الابرياء المساكين ويأمر عساكرهُ بالامتناع عن قتلهم وتعذيبهم اكتفاءً بالذي فعلهُ الدروز من قبلهم فضحك ذلك الوحش الدنيء من فعل الامير وهزأَ بشفقتهِ وامرهُ ان يسير في الحال إلَى بيروت فسار والحرقة ملءُ الفؤَاد

وكان الدروز بعد هٰذا النصر ينوون ان يتقدموا على كسروان ويفتكوا بالموارنة وبطريركهم فرأَى الشيخ نعمان جنبلاط (اخو الشيخ سعيد الذي ذكرناهُ وابن الشيخ بشير) ان العداء زاد عن الحد ومنع

قومهُ عما ينوون فعادوا بامرهِ ورأى البطريرك ان طنطنتهُ لم تفد ومساعيهِ لم تنجح وعلم ان الدروز فتكوا بقومهِ وملكوا البلاد فخاف العاقبة واراد الفرار بنفسهِ فخابر في ذلك قبطان احدى البواخر الانكليزية ورجاهُ ان يحميهُ من الدروز وفاتهُ انهُ كان قبل ذلك بايام قليلة يحرم كل من يحوّل نظرهُ إلَى مراكب الانكليز ويحلل قتل كل من والاهم ويعدهم أكفر الكافرين

وسمع قناصل الدول بهذه المجازر فتحققت مخاوفهم وصدق ظنهم في الاتراك لان معظمهم كانوا يعلمون ان الحكام جعلوا همهم تدبير مكيدة لاضعاف النصارى وتقليل جموعهم في بلاد الشام وجاؤُا إلَى السر عسكر سليم باشا الذي كان يدبر تلك الحركات وهو الذي قال بعدئذٍ عَلَى مسمع من بعض وكلاء الدول ان القلاقل تمت بامرهِ وعلمهِ « وانهُ كان يعلم ان نيَّة الدروز الهجوم على دير القمر ومحاصرتها قبل وقوع الامر باسبوعين » فاظهر لهم الاستغراب والنفور من هذه الفظائع وقام معهم في الحال إلَى نواحي بعبدا فاجتمع هناك بالدروز وزجرهم وامرهم بالتزام السكينة ولكن القوم كانوا يعرفون القصد من ذلك وعندهم تعليمات سرّية بالذبح والنهب فاظهروا الخضوع وما عتم الباشا والقناصل ان عادوا إلَى منازلهم حتى رجع الثائرون إلَى اسوإِ مما كانوا عليهِ وانقسموا فرقتين ذهبت احداها إلَى المتن والاخرى إلَى البقاع فاما فرقة المتن فقصدت قرية حمانا وخرج اهلها لطلب الامان من زعماء الدروز فامنوهم ثم نقضوا العهد عَلَى عادتهم ونهبوا البلدة وفرضوا عَلَى النصارى مالاً طائلاً وحرقوا الكنيسة ودمروا المنازل وانتقلوا منها إلَى

قرية فالوغه وحاصروها وصدف ان حضر في اثناء محاصرتها محمد اغا تفكجي باشي فنادى بالامان عن لسان سليم باشا وطلب سلاح النصارى فسلموهُ بلا معارضة ثم اجاز للدروز الفتك عَلَى ما تقدم فقتلوا بعض الرجال ولم يبقوا عَلَى شيء في القرية وكان من جملة المقتولين اثنان من الكهنة وبعض نساء الامراء الشهابيين . كل ذلك بحضور نائب الدولة التركيَّة ورضاهُ بعد ان حرم النصارى سلاحهم بطرق الغش والخداع وكان هؤلاء اللئام في كل هذه الحوادث ياتون كل حيلة لاخذ سلاح النصارى حتى يسهل عليهم الفتك بهم والتصرف بارواحهم وفعلوا مثل ذلك في بكاسين وبزبدين وقرنايل و بوارج وعين طوره والقعقور والعباديه وراس المتن وقرى كثيرة غير هذه

شبلي العريان

واما الذي حدث في البقاع بامر والي دمشق نجيب باشا فاقل ما يقال فيه انهُ اشد هولاً مما حدث في قرى المتن ذلك ان هٰذا الباشا كان اخبث الاتراك الذين حكموا الشام في ايام نكباتها واكثرهم لؤماً وتعصباً ومع ان السر عسكر سليم باشا اشتهر بالذي قدَّمناهُ من حب الفتك بالنصارى فقد كان افضل من نجيب باشا وارحم كما سترى في قصته التالية . وكان بين الدروز في تلك الايام بطل شهير لهُ مقام كبير اسمهُ شبلي العريان اصلهُ من راشيا الوادي عرف بالجرأَة الغريبة في حروب الدروز مع ابرهيم باشا وظهر منهُ الميل الشديد إلَى الفتك بكل عدو او معاند فعينهُ نجيب باشا حاكماً عَلَى حاصبيًّا وراشيًّا

مقدمةً للفتك بالنصارى وذبحهم عن آخرهم لانهُ كان ينوي ان يفعل ذلك في ولايتهِ ولا يبقي في طول البلاد وعرضها نصرانيًا والله يعلم ما الذي جناهُ هؤلاء المساكين وقد كانوا اذل من بيضة البلد واطوع الناس للحكومة التركيَّة . فكان اول اعمال شبلي العريان في حاصبيا انهُ نزع السلاح من النصارى بدعوى ان الامن في البلاد يقضي بذلك ولم يتعرَّض للدروز مع ان نصارى هاتيك الانحاء من الروم الارثوذكس لا علاقة لهم بالموارنة الذين كانوا السبب في هذه الحروب ولم يظهر منهم غير كل ادب وتعقل ولكن الدروز والاتراك كانوا ينظرون اليهم بعين الحسد ويطمعون في امتلاك اموالهم لان القوم اكبوا عَلَى صناعتهم وتجارتهم فعمرت بيوتهم واتسعت ارزاقهم وكان هٰذا هو الذنب الكبير عند الاتراك الذين يسوءهم ان تنمو احدى الطوائف الخاضعة لهم لانهم يخافون ان تقوم عليهم وتطردهم من البلاد يومًا فهم ابدًا يرقبون هذه الطوائف ويأتون كل حيلة لاضعاف الذين تظهر عليهم دلائل النهوض والقوة ولهم شهرة في كره النصارى من رعيتهم بنوع اخص لانهم اكثر الناس ميلاً إِلَى التقدم واوفرهم ذكاء واستعدادًا للنمو والاستقلال متى احسوا بالقوة الكامنة فيهم

ومن غريب الامر ان سليم باشا الذي مرَّ ذكرهُ كان يظهر الاستغراب والنفور من هذه الفظائع اذا حدثهُ القناصل في شأنها ويرسل نوابهُ إِلَى كل ناحية ليساعدوا الدروز عَلَى الفتك بالنصارى باسم هذه الحكومة ٱلَّتِي اقامها الله لتنصف في الناس وتؤَمنهم عَلَى ارواحهم واموالهم فبين كان يتظاهر بحب العدل وقمع الثورة ارسل

خمسة جمال محملة رصاصاً وباروداً إِلَى الموارنة وكان ارسالها اليهم علناً على رؤُوس الاشهاد ثم ارسل مثلها في اليوم التالي إِلَى الدروز في المتن حتى يداوموا القتال وثبت هٰذَا كلهُ من الاوراق الرسميَّة . بمثل هٰذَا تحكم الدولة التركيَّة في بلادها

القتال في سغبين وزحلة

قلنا ان شبلي العريان التابع لولاية دمشق اخذ من النصارى سلاحهم بناءً عَلَى اوامر رسميَّة وردت اليهِ من الوالي نجيب باشا ثم اتبع ذلك بالقاء اكابرهم في السجن وتغريمهم المال الكثير وتعذيب بعضهم عذاباً اماتهم وغير هٰذَا من الفظائع . ثم انهُ وزع السلاح الذي اخذهُ من النصارى عَلَى الدروز واعطاهم المؤُونة والذخيرة وكان عَلَى وشك الفتك بهم فصدر لهُ الامر بان يقوم في الحال إِلَى البقاع لمعاونة سعيد جنبلاط وغيرهُ ممن كان نفتك باهل هاتيك الربوع وكان هٰذَا الطاغية (سعيد جنبلاط) قد رحل عن جبل لبنان بعد ان فتك باهلهِ بنكث العهود واخلاف الوعود والخيانة والدناءة والظلم الوحشي وانقض عَلَى قرية سغبين بمن معهُ فقتل منها في ليلة واحدة مايتين وعشرة انفس بريئة ولما علم ان شبلي العريان قادم لمعاونتهِ قام لاستقبالهِ وبدأَ الاثنان يستعدان للهجوم عَلَى زحلة وهي اكبر المدن الجبليَّة في بلاد الشام ولاهلها شهرة في شدة البأس والاقدام . ولما علم القناصل بان الشرزاد والبلاء عم لم يبقَ لهم صبر عَلَى هذه الاهوال وعلموا انهم اذا لم يسرعوا إِلَى خلاص زحلة من الجيش الزاحف عليها

كان خرابها عظيماً لان الذين كانوا فيها لم يقلوا يومئذ عن ١٥ الف نفس من اهلها واللاجئين اليها وكلهم من النصارى فاظهر سليم باشا المروءة والشهامة عَلَى عادتهِ وارسل في الحال رجالاً من قبلهِ يأمرون الدروز بالرجوع عن هذه المدينة وعاد القناصل إِلَى التصديق ولكن بعضهم لم يصدق بعد كل الذي رآهُ من آيات الخيانة والخداع فكتبوا إِلَى دولهم يقولون ان لم تبقَ في اليد حيلة وان الحكومة تحرض الدروز والمسلمين على قتال النصارى في كل الانحاء وانهم تأكدوا من مصادر لا ريب في صحتها ان الولاة كانوا يفعلون ذلك بامر الباب العالي وقال قنصل روسيا وقنصل فرانسا في تقاريرهما الرسمية انهُ اذا لم تبادر الدول في الحال إِلَى التداخل بطريقة اقوى وافعل من الكلام صار النصارى في خطر الذبح في كل بلاد الشام · ومن غريب الاتفاق انهم عثروا يومئذٍ على كتاب رسمي من نجيب باشا إِلَى سليم باشا يقول لهُ فيهِ ان (لا تتعبوا سركم في القلاقل الحاصلة في بلاد الشام لانها انما تجري بامر الباب العالي) فيا للعجب ! ! !

وكان في زمرة المهاجمين لمدينة زحلة خمسماية تركي من عساكر الحكومة المنظمة جاء بهم شبلي العريان من حاصبيا تحت امرتهِ فانضموا إِلَى دروزهِ ودروز سعيد جنبلاط وغيرهما وزحفوا عليها ولما جاءهم الامر بالرجوع عنها وقفوا بضعة ايام فظن الناس انهم اطاعوا الامر ولكن وقوفهم هٰذَا لم يكن الَّا لانتظار فرقة من الجيش السلطاني المظفر جاءت تحت قيادة رشيد باشا ليحافظ على الامن ! فلما وصل هٰذَا الجيش تقدم الدروز باشارة قائدهِ إِلَى زحلة وتبعهم عساكر

السلطان ليسدوا عَلَى الفارين من النصارى الطرق ويتقدّموا لاعانة الدروز حين اللزوم ولم يسمع إِلَى الآن بخيانةٍ اعظم من هذه الخيانة تصدر عن حكومة تنشر الخطوط والاوامر وتدّعي حب الانسانيَّة والعدل وتسمي نفسها الاسماء الفخيمة وبعد ان تعد وتوَّكد بالمحافظة على ارواح رعاياها ترسل جنودها للفتك بهم مع الثائرين وهم ما ثاروا الَّا بامرها ولا ذبحوا الَّا بسيفها ولو ان الدروز تأَخروا عن طاعتها وامتنعوا عن معاونتها عَلَى ذبح النصارى لاستعانت بالنصارى على ذبح الدروز ويا لله من هذه الحكومة وهذه الاحكام

عَلَى ان اهل زحلة اظهروا الحزم والبسالة إِلَى حدٍّ لم يخطر ببال اولئك الظالمين الذين جاؤُا ليذبحوهم ذبح الانعام ولما وصل اولئك العتاة ابوابها ارسلوا يؤَمنون الناس فيها عَلَى ارواحهم ويطلبون سلاحهم عَلَى ما تقدم واعان الله اهل زحلة فسدد رأْيهم واراهم عاقبة هٰذا التسليم واوضح لهم خيانة الاتراك والدروز فلم يرضوا بتسليم اسلحتهم وبدأُوا بالقتال فاظهروا قوةً واقداماً غريبين ردّ اولئك الانذال الخائنين عَلَى اعقابهم خاسرين فسلم النصارى في زحلة من الذبح والهوان وسلمت اموالهم من النهب ولو ان النصارى انضموا بعضهم إِلَى بعض وقاوموا اهل الفساد مثل اهل زحلة لفتكوا بهم وفلوا جموعهم وخلصوا من تلك النكبات الهائلة ٱلَّتِي رزئوا بها في ذلك العام المشؤُم. ولما لقي الانذال الفشل في زحلة هجموا عَلَى القرى المجاورة لها ودمروها عن آخرها وكانوا يقتلون كل نصراني يقع في ايديهم بلا اثم ولا ذنب وعمت رذائلهم وكثرت قبائحهم حتى اصبح القسم الجنوبي من جبل

لبنان نارًا متقدة من اقصائهِ إلى اقصائهِ وتاه النصارى في القفار والجبال فلجأُوا إلَى الحراج والكهوف او عمدوا إلَى بعض القرى التي لم تصلها يد الدروز وكان معظم هؤُلاء المساكين حفاة عراة يقاسون الهول والمر ويتوهمون ان القيامة قامت وان النصارى انقرضوا واختفوا عن وجه هذه الارض ولم يبقَ عليها غير المسلمين والمتاولة والدروز ولو شئنا وصف احوال الارامل والايتام المساكين الذين هجروا المنازل وحرموا الرقاد وصار نصيبهم الذل والهوان لفطرنا المرائر وادمينا القلوب ولكننا نعرض عن وصف تلك الاهوال والمصائب توفيرًا لعناء الحسرة والبكاء عَلَى القارئ النبيل فليس في الارض بشري من غير الاتراك يقرأُ عن هذه المنكرات ولا يتوجع ويتفجع

نتيجة الحرب

وكان من نتيجة هذه الحروب والمذابح ان النفوس الامارة بالسوء هبت إلَى شرب الدماء في كل انحاء البلاد وكان الاتراك يزيدون النار وقودًا ويثيرون عَلَى النصارى كل من كان لهم مبغضًا وعدوًّا لدودًا والظلم من شيمة النفوس الغدارة اذا ما حرَّكها التعصب الديني وقوَّاها حب الغنيمة والانتقام فثارت ثائرة المسلمين في كل المدن وقاموا يريدون ذبح جيرانهم فاحس النصارى بعظم البلاء والضيق واتوا كل حيلة للخلاص من الموت الذي كان يتهدَّدهم بهِ المسلمون والمتاولة ولكنهم لم يسلموا من الاذى والاهانة الكبرى الاَّ لما سمع الظالمون بان الدول الاوربيَّة قد ارسلت اساطيلها إلَى مين الشام وراها المسلمون نخافوا شر

مدافعها ورجعوا عما كانوا ينوون من الامور المنكرة

كل هٰذا ونجيب باشا والي الشام يدسُّ الدسائس ويهيج المسلمين عَلَى النصارى حتى صارت المذابح ٱلَّتِي ينويها الاشرار من الامور المحتمة لولا ان يشدّد وكلاء الدول وفي مقدمتهم الجنرال وود قنصل انكلترا في دمشق بوجوب الانتباه وصيانة حياة النصارى . وكان هٰذَا الرجل العاقل — القنصل وود — يعلم انهُ اذا لم يفرغ الجهد في ملافاة الامر قبل وقوعهِ حصل في كل بلاد الشام مثل ما حصل في جبل لبنان فاجتمع بعلماء المسلمين وعقلائهم و باحثهم في الامر و بيّن لهم العواقب السيئة ٱلَّتِي تنتج عن فعلهم وكان بينهم اناس من اصحاب العقل والانسانيَّة سمعوا رأيهُ وساعدوهُ عَلَى الوالي التركي فذهبوا اليهِ واوقفوهُ عن المسير إِلَى الحج وكان هٰذَا الطاغية ينوي ان يغيب في الحجاز بعد الذي دسهُ من الدسائس والذي دبَّرهُ من الحيل حتى تحصل المذابح في غيابهِ ويكون لهُ عذر امام الاوروبيين عَلَى عدم منعها . فلما ذهب اليهِ العلماء وفي مقدمتهم القنصل وود وحذروهُ من عواقب هٰذَا البغي وهذه الخيانة رأى الحق في جانبهم فعدل عن مرافقة المحمل إِلَى مكة و بقي في ولايتهِ يعطي الاوامر بمنع الاعتداء وابطال الدسائس والمحافظة عَلَى الارواح وبهذا وقف سير المجازر وانتهت حوادث سنة ١٨٤١ المشؤومة

وكان الدروز إِلَى ذلك الحين يتحفزون للعود إِلَى القتل والذبح و ينتظرون قيام المسلمين في الشام عَلَى النصارى حسب الوعد حتى يعيدوا الكرّة عَلَى جيرانهم في لبنان فلما علموا ان نجيب باشا اضطر إِلَى المناداة

بالامان وسكت عما كان ينويهِ سكتوا هم ايضاً لانهم لم يقوموا لهذه الفعال الاَّ بتحريض الاتراك وهدأ روع البلاد وبطلت الحرب ٱلَّتي كانت علتها طمع بطريرك الموارنة في مد نفوذه وتعصبهِ على كل من خالفهُ في مذهبهِ واوقد نارها الدروز الذين رأوها خير واسطة للدفاع عن استقلالهم ولقهر الاعداء واذلالهم وشدد وطأتها الاتراك بدسائسهم ومكرهم وعدائهم للطائفتين ولو لم يقم الدروز يومئذٍ على النصارى باغراء الحكام لاغرى الاتراك النصارى ان يقوموا على الدروز ويذبحوهم كما سترى في الفصول القادمة وكما رأيت في الذي تقدم من هذا الكتاب

وقد نتج عن هذه الحرب الاهليَّة خسارة ثلاثة آلاف رجل من النصارى قتلوا في لبنان والبقاع وبعضهم في المدن وحوالي اربعماية رجل من الدروز ولولا محاربة الدروز المسيحيين بالخيانة ومساعدة الحكومة لهم في كل مكان على نزع السلاح اكثر عدد المقتولين وزاد عن هذا القدر . واما الخسائر المالية فلم تحصَ ولم تقدر في ذلك الحين ولطالما طلب النصارى بعد هذه الاهوال تعويضاً عما اصابهم من الخسارة ورد املاكهم ٱلَّتي اغتصبها الدروز اليهم فكان الاتراك يتظاهرون بالميل إلى مساعدتهم ويعرضون عن اجابة الطلب كما سيجيء . وقد اوقدت هذه الحرب في الصدور ناراً لم تطفأ الاَّ بعد الهياج مراراً ونال الاتراك غايتهم من اهل الجبل ومن المسيحيين اجمع بزرعهم الاحقاد في القلوب واتموا بدم الرجال ما كانوا ينوونهُ من انماء العداء المر والتعصب المستمر حتى لا تتحد هذه الطوائف عليهم ولا تقوى على مناوأتهم وطردهم من البلاد

﴿ عمر باشا ﴾

وقررت الحكومة بعد هذه الحوادث عزل حاكم لبنان وهو الامير بشير قاسم شهاب الذي ذكرناهُ بدعوى عدم اهليتهِ والحق يقال انهُ اظهر من سوء الادارة وعدم الاهليَّة ما جلب على بلادهِ كل هذه المصائب واستحق العزل من اجلهِ وارسل اسيرًا إِلَى الاستانة وهي مدفن الاحياء فلم يسمع عنهُ شيء بعد ذهابهِ . وفي ١٥ يناير من سنة ١٨٤٢ عين عمر باشا واليًا تركيًا على لبنان وهذه هي الامنيَّة ٱلَّتِي كان الاتراك يتفانون في سبيل تحقيقها ووصل بعدهُ من الاستانة تركي آخر اسمهُ مصطفى باشا هو الشيطان الرجيم بعينهِ كانت مهمتهُ في الظاهر البحث عن اسباب الثورة الاخيرة (وما سببها الَّا رداءة الحكومة التركيَّة) وتقديم آرائهِ في الذي يجب عملهُ لمنع وقوع امثالها في المستقبل. واما في الباطن فكانت مهمتهُ تنفيذ الاوامر ٱلَّتِي أُعطيت اليهِ سرًّا في الاستانة لاثارة الضغائن وانماء الاحقاد وابقاء اسباب العدوان والفساد حتى لا يستريح الجبل من هذه الشرور ولا يقوى على طرد الاتراك وحتى تبقى الطوائف كلها في نزاع مستمر يضطرها إِلَى طلب رحمة الحكومة التركيَّة والالتجاء إِلَى عدلها المشهور فعمل مصطفى باشا هٰذَا بالذي جاء من اجلهِ وزاد كره المسلمين للنصارى بمساعيهِ زيادة هائلة . ثم ان هذا الشيطان الخبيث جمع رؤساء الدروز ورؤساء النصارى واوضح لهم كذبًا وزورًا ان الحكومة تريد ان تنفعهم في امورهم وتمنع القلاقل من بينهم وسألهم ان يقدموا آراءهم في حكومة

لبنان وحاكمه على حسب ما يرون بدون خوف ولا حذر ولكنهُ اوعز إلى كل فريق منهم سرًّا الّا يكتب في تقريره الّا ان يكون والي لبنان مسلمًا تركيًا وان يمتدحوا خطة عمر باشا و يفضلوا الاحكام التركيَّة على احكام امرائهم من آل شهاب وغيرهم. وطلب الى النصارى ان يكتبوا تقريرًا عمَّا حصل لهم وما نالهم من الخسارة ففرحوا بذلك فرحًا عظيمًا ورفعوا صوتهم ينادون بالنصر للسلطان ولمصطفى باشا وقالوا ان الحكومة ستقتص من الذين قتلوا اقاربهم وتعيد اليهم اموالهم وتعوّض عليهم خسارتهم وما عتّموا ان كتبوا هٰذا التقرير وذكروا فيهِ اسماء بعض المشايخ من الدروز الذين اشتهروا بالفتك والخيانة حتى اشتهر امر هٰذا التقرير بين الدروز اذ اطلعهم مصطفى باشا عليهِ وكثرت الاحقاد وصار الدروز يقولون بعضهم لبعض ان النصارى يريدون في تقريرهم ان تشنق الحكومة كل مشايخنا وابطالنا و يطلبون اليها ان تعطيهم ارزاقنا واموالنا وتعاظم البلاء وزاد العداء إلى حدٍّ هائل بسبب هٰذا التقرير مع ان النصارى ما كتبوا فيهِ الّا الذي امرهم مصطفى باشا بتقريرهِ وذكروا اسماء الذين اشتهروا بالذبح والنهب ولم يطلبوا شنقًا ولا قصاصًا ولا رجوا هٰذا التركي الغاشم في امر غير ارجاع املاكهم واموالهم ٱلّتي سلبت منهم ولكن الحكومة التركيَّة ٱلّتي ساعدت الدروز على نهب تلك الاموال وحرّضتهم على قتل اولئك الرجال لم تكن لترضى بالاقتصاص منهم على سماع امرها وما فكرت يومًا واحدًا في التعويض عَلَى رعاياها الذين سلمتهم للذبح والنهب

التقارير الكاذبة

واما التقارير ٱلَّتِي اوعز مصطفى باشا إِلَى الناس بكتابتها فأُعطيت صُوَرٌ منها إِلَى الطائفتين وكلها ذم في امراء آل شهاب وعدم مقدرتهم عَلَى الحكم في لبنان وتفضيل حكومة الاتراك والوالي التركي وكان الحكام يأتون كل حيلة لارغام الناس عَلَى ختم هذه الاوراق الكاذبة ويستعملون الارهاب والتمايق والعذاب والمنح وكل وسيلة أُخرى تنيلهم المرغوب وهٰذَا نصُّ كتابٍ ارسلهُ علي بك خزينه دار مصطفى باشا في ٣ جماد آخر سنة ١٢٥٨ هجرية إِلَى احد حكام المتاولة في هٰذَا الشأن ننقلهُ هنا بالحرف الواحد ليرى الناس كيف يحكم الاتراك رعاياهم

« جناب افتخار الاماجد الكرام اخينا المكرم حمد البيك حفظهُ الله تعالى

غب ابلاغ التحيَّة والسوال عن خاطركم بكل خير وعافية المبدي لخوتكم انهُ بحسب الاعتماد عَلَى صداقتكم واستقامتكم الاكيده والآن توجه لكم تحرير من عربي كاتبي الخواجا جبرائيل العوره فبوصولهِ ليدكم تعتمدوا ما لهُ وتظهروا همتكم المعهودة باتمام العمل طبق تعريفهِ لكم وتهتموا بنجازهِ وارسال الجواب لطرفنا بالجبل بحيث مرسالكم يلحقنا اينما كنا ان كان في المتن او في زحلة او في بلاد جبيل وحسب عهدنا الوثيق بصداقتكم باقرب وقت تتمموا المصلحة طبق التعريف ودمتم »

محل الختم

وهذه صورة تحرير جبرائيل العوره إلى الحاكم المذكور وهو المشار اليهِ في الكتاب الذي مرَّ

« سني الهمم سلطانم

« غب تقديم الدعا بدوام بقاكم نعرض الآن واصل طيه فرخين ورق كبير على بياض وصورة عرض محضر إلى حد الورق البياض فيهِ الكتابة وعلامة محلات الاسما والختوم فالقصد بذلك ان بحال وصولهِ تحرروا العرض محضر وتنهضوا الغيرة التامة بتختيمهِ من مشايخ المتاولة جميعهم ومن مشايخ القرايا الاسلام والنصارى في مقاطعة تبنين وساحل معركة وهونين وساحل قانا ومرج عيون والشقيف وجباع غير ان لا تدعوا احد من مشايخ العشائر ومشايخ القرايا اسلام ونصارى الَّا وتختموهُ وبالخصوص تجتهدوا على تكثير اسماء النصارى والذي ما لهُ ختم تدعوهُ بالحاضر يعمل ختم ويختم واتخذوا كل الفنون والنباهة المعهودة منكم لما بهِ البولتكه والتنازل الكاين من كان بحيث لا تخلوا احد من وضع اسمهِ وختمهِ وهذه تعد لجنابكم عند دولتهما (مصطفى باشا وعلي بك) من اعظم الخدمات المقبولة وتحوزوا الرضى الوافر فوق ما تؤملونهُ وهذا وقت اكتساب الفرصة » (محل الختم)

وهذه صورة العرض الذي كان يريد الاتراك من الناس ختمهُ على الصورة الموضحة في ما تقدم

« انهُ كما مشهور وصار مشاهد ومحقق بالعيان من وجود ادارة الدولة العليَّة في حكومة لبنان فقد حصلت اهالي الجبل المذكور عموماً على غاية الامنيَّة والراحة والرفاهيَّة والعدل والانصاف بنوع انهم من

حينما تخلصوا من ادارة الامير بشير الشهابي واولادهِ واقاربهِ خصوصاً الامير امين والامير بشير القاسم وابناء عمهم وانسابهم واعوانهم واتباعهم الذين املوا الجبل المذكور وجواراته نظير بلادنا وغيرها من البلاد المجاورة لهم من التعديات والمظالم المتنوعة فقد خرجت الاهالي والسكان بوجود ادارة الدولة العليَّة من العتم إِلَى النور ومن دهر الظلم والجور إِلَى ساحة العدل والامان . فنظراً إِلَى عدالة الدولة العليَّة وانصافها الذي عم العالم باسرهِ فبمقتضى عدالتها وانصافها المرحمة بحق عبيدها ورعاياها بدوامهم في ادارة احكامها وعدم اعادة احكام الشهابيون بوجه الاطلاق . بل ولا واحد من اهالي الجبل لا اسلام ولا عيسويون عملاً بمرضاة الباري تعالى جل جلالهُ لرحمة عبيدها ودوام استخلاصهم لعتقهم من احكام الشهابيون ومظالمهم المتنوعة واتباعاً للحديث الشريف كلكم راعي وكل مسئول عن رعيتهِ وحيث انوجدنا نحن من المجاورين للجبل ولنا الاطلاع التام عَلَى احوالهِ واخذنا وعطانا مع الجبل وفي الجبل المذكور كثير فان ذات ادارة احكام الدولة العليَّة في جبل لبنان يعمنا من الامان والراحة . وان لا سمح الله تعالى تغير ذلك بضدهِ فنحصل عَلَى الاتعاب والمشقات لاجل ذلك بسطنا الان عرض عبوديتنا هذه نسترحم بها من الاحسان الملوكانيَّة والمراحم الشاهانيَّة النظر لعبيد ورعايا الدولة العلية بعين المراحم والاشفاق وابقاء احكام الدولة العليَّة في جبل لبنان وعدم النظر والالتفات إِلَى حركات المفسدين الذين يسعون بسلب راحة وامنيَّة عموم الاهالي والفقراء ويدبرون عرضحالات التزوير بالتماس ارجاع احكام الشهابيون لان

ذلك موافق غاياتهم الرديّة ومغاير انصاف وعدالة الدولة العليّة وحاشاها ان تهمل دوام راحة رعاياها وعبيدها وتنظر لتزوير ونفاق هولاء والامر لمن لهُ الامر افندم»

﴿ السياسة التركيّة ﴾

بمثل هذه الحيل الدنيئة والتدابير الساقطة كان الاتراك يحاولون تضليل اوروبا والتمويه عَلَى العقول واخفاء امر المظالم والمجازر الهائلة اَلَّتِي امروا الدروز بها٠ وقد بذل هؤلاء الحكام ما في وسعهم لارضاء النصارى فرشوا بعض مشايخهم وقربوا آخرين وارهبوا آخرين حتى تمكنوا من نوال مساعدتهم فنسي هؤلاء المساكين الذي جرى لهم على يد الاتراك وختموا لهم ما يريدون فاخذت الحكومة التركيّة هذه التقارير سلاحًا تردّ بهِ حجة اوروبا في التداخل وتظهر منها استتباب الامن ورضى جميع الاهالي عن حكومتهم الفاسدة٠ والذي يقرأ هٰذا العرض الذي نقلنا صورتهُ يرى كيف تبعد الحكومة التركيّة عما تصف بهِ نفسها من آيات العدل والانصاف والعجب انها نجحت بمثل هذه السياسة وهي تعود اليها آونةً بعد اخرى فقد اتتها في بلاد الشام عام ١٨٦٠ حين حصلت المذابح الهائلة اَلَّتِي سنأْتي عَلَى ذكرها وفي بلغاريا سنة ١٨٧٦ وفي ارمينيا سنة ١٨٩٤ والله يعلم متى يعود الدور إِلَى سوريَّة ولبنان ويبلى الناس بالذي لا يطاق اذا ظلت هذه البلاد المسكينة في قبضة هذه الدولة الظالمة٠ والغريب في الامر ان الحكام جعلوا يسجنون ويعذّبون كل واحدٍ لم يختم لهم الاوراق اَلَّتِي طلبوها

برضاه وذلك بعد نوالهم المرغوب من الذين ظلموهم وشددوا الوطأة على بعض اصحاب النفوس الابيَّة حتى اماتوهم في السجن من الجوع والعذاب والاهانة وكانوا كلما لحظوا من احد الناس ميلاً إلى احدى الدول الاوروبيَّة يتعمدونهُ بالاذى بنوع خاص ويذيقونهُ البلاء بالفضيلة مع انهم ما عادوا إلى امتلاك الشام الأ بمساعدة دول اوروبا ومساعيها فقابلوا جميلها بالكفران ونعمتها باللوم وهذا شأنهم إلى اليوم يتذللون لاوروبا ويلتجئون اليها عند الحاجة واذا لحظوا من احد رعاياهم ميلاً إلى واحدةٍ منها نكلوا بهِ واذاقوهُ مرّ العذاب ليروهُ بطشهم وقوتهم وهم يعاملون كل من خضع لهم بالقسوة الوحشيَّة والارهاب لانهم يقولون على مسمعٍ من كل سامع ان هذا لازم لحياتهم الجنسيَّة ولسيادتهم الحربيَّة والسياسيَّة . ولما كانت اكثر البلدان التي يحكمونها آهلةً بالمسيحيين والمسلمين فهم يتخذون المسلمين آلة لانفاذ مآربهم فاذا آنسوا منهم اتحاداً مع جيرانهم اتوا الحيل المعروفة للتفريق بينهم وكانوا يومئذٍ ياتون واسطةً يعمدون اليها في كل حين هي انهم اذاعوا بين الملا ان اوروبا عازمة على مهاجمة مملكتهم وامتلاكها وسحق الاسلام ومحقهِ واعطاء السيادة في الشام وسواها الى النصارى بدل المسلمين فهيجوا تخاوف اهل الاسلام وحقدهم وجعلوا الجهال والرعاع منهم ينوون الايقاع بالنصارى حالما تناسبهم الاوقات وتساعدهم الظروف

وعلى ذلك يتضح ان هذه الدولة لا تقصد لرعاياها على اختلاف اديانهم غير العداء والشر وتريد اضعافهم وغل ايديهم عن القيام عليها وهي تكره النصارى بنوع اخص لانهم ليسوا على دينها المعروف

ولانهم اكثر اهل الطوائف ميلاً إِلَى التقدم والنمو ولان الدول الاوروبيَّة تسأل عنهم اذا مالت هذه الدولة عليهم إِلَى حدّ يزيد عن المعتاد . ولهذا فليس في صدور العارفين اليوم ريب في ان كل ما تعد بهِ هذه الدولة من الاصلاح والتحسين تمويه وتضليل لا تقصد اجراءهُ ولا تأمر بهِ من عند نفسها وهي ما اقدمت على امر حميد من يوم وجودها الاَّ قسرًا واضطرارًا . وقد اتخذت خطة الخداع والروغ والماطلة والكذب والمحاولة والوعد والتسويف والغدر والخيانة وكل ما يشبه هذه الاوصاف الدنيئة شعارًا لها في هذه الامور فهي اذا اصدرت امرًا بالاصلاح حتى تسكت اوروبا عنها اوعزت الى عمالها الاشرار سرًّا بالاَّ ينفذوا امرها او بان يقيموا ما امكن من العراقيل في سبيل اتمامهِ حتى اذا مضى الوقت وخمدت الافكار لم يبق في وجهها مطالب بالاصلاح وظلت البلاد على حالها من الخلل الذي لا يعيش الاتراك بدونهِ . وهم يستعملون الدين واسطة للدسائس وابقاء الظلم والتعصب في مثل هذه الاحوال فيوعزون إِلَى جهلاء المسلمين بمعارضة الاصلاحات و يفهمونهم انها ترفع شأن النصارى ويحرضونهم على المعارضة والتظاهر بالثورة و يقولون لاوروبا حينئذٍ ان حبهم للبلاد ورغبتهم في انتشار الامن ومصالحة الرعيَّة قضت عليهم بالتاخر في تنفيذ هذه اللوائح الَّتي يعود عنها الخير ولطالما قال الاتراك في كتاباتهم الرسميَّة وجاهر اصحاب الشأن فيهم « انهم لا يقدرون على استرجاع مقامهم الاول وسطوتهم الاَّ ان يعودوا إِلَى التعصب »

عود القلاقل

قلنا ان عمر باشا تعين حاكمًا تركيًا على جبل لبنان ونال الاتراك بتعيينهِ امرًا طالما تاقت نفوسهم اليهِ ولكنهُ لم يفلح في مهمتهِ ووجد ان الذي يحكم في جبل لبنان وهو من غير اهلهِ لا يلقى منهم الخضوع الذي ينتظرهُ الحاكم من المحكوم ذلك لان الاهالي كانوا يكرهونهُ ويكرهون جنس دولتهِ فلم يؤدُّوا لهُ تجلةً ولا اطاعوا لهُ امرًا الاَّ قسرًا وقهرًا ولان الدروز كانوا قد ثملوا بخمرة النصر وذاقوا حلاوة السيادة والنهب والسلب فلم يعد في امكانهم الخضوع للحاكم التركي وهو مثل افراد هٰذا النوع لا يقدر عَلَى العيش بدون الامارة الكثيرة والتظاهر بالابهة والفخامة. وكان هٰذَا التركي كلما تداخل في امرٍ او قضى في مشكلةٍ بين الناس يرى من تصدي مشايخ الدروز لهُ ما لا يسرهُ لانهم كانوا يعتقدون ان النصر صيرهم اصحاب البلاد وارباب الامر عَلَى النصارى فلم يطيقوا تحكمهُ في الناس الذين كانوا يعدُّونهم من رعاياهم. وحاول عمر باشا ان يكسر شوكة الدروز ويجعل اكابرهم طوع امرهِ فبدأُوا يتذمرون و يتململون وجعل البعض منهم يقولون عَلَى رُؤُوس الاشهاد انهم لا يطيقون الخضوع لحاكم كانوا هم السبب في تعيينهِ وان الدولة التركيَّة هي اَلَّتِي حرضتهم عَلَى الحركات الاخيرة ووعدتهم بالسيادة والملك فلا يصح بعد هٰذَا ان تنقلب عليهم وتحاول نزع هذه السلطة منهم. ثم ان بعض مشايخهم جاهروا في ذلك الحين بان الدولة التركيَّة اخذت منهم اكثر من نصف الذي سلبوهُ ونهبوهُ وانهم ما تمكنوا من

(نوال مساعدتها لهم على النصارى الّا بعد ان دفعوا لها مبلغاً هائلاً من المال لا يقل عن ثلثماية الف ليرا عثمانيّة. وقال الشيخ شبلي العريان — وهو يومئذٍ من اشهر ابطال الدروز واكبر زعمائهم — انهُ لم يبقَ في طول البلاد السوريّة وعرضها موظف تركي حتى نال من الرشوة واعطي من المسلوب والمنهوب ما اغناهُ وان الصدر الاعظم بنفسهِ اخذ من طائفة الدروز مالاً طائلاً حتى مال معهم وامر اعوانهُ بمساعدتهم فما دام الاتراك اخذوا حقهم من هٰذا الاتفاق فالدروز يصرُّون على اخذ الذي قاموا وقتلوا النصارى من اجلهِ وهو السيادة التامة والتحكم في البلاد بدل ان يصيروا هم والنصارى سواءً تحت تحكم الوالي التركي ثم بدأَ البعض منهم يتوعدون الحكومة بافشاء السر ونشر المعاهدة السريّة ٱلَّتِي كانت بينهم وبين الحكومة التركيّة على الفتك بالنصارى اذا ظلت هذه الحكومة على معاندتهم والتعرُّض لهم او اذا اصرّت على رد ما نهبوهُ من النصارى اليهم - كل هٰذا ننقلهُ عن التقارير الرسميّة ٱلَّتِي بعث بها وكلاء الدول المسيحية إِلَى وزاراتهم وليس فيهِ شيءٌ من المبالغة والتهويل

(ورأى عمر باشا ان مقامهُ في بيت الدين (هي عاصمة لبنان على مقربةٍ من دير القمر اهم مدائنهِ) صار محفوفاً بالاخطار والمكاره وان نفوذهُ تقلص وسلطتهُ ضاعت فبعث الى السرعسكر يطلب منهُ المدد ويرجوهُ ارسال الجنود لاعانتهِ على الدروز فابى السرعسكر ان يجيبهُ إِلَى هٰذا الطلب وعيَّرهُ بخيانة الدين في ميلهِ على الدروز الذين نصروا الحكومة على المسيحيين) كأَن الدروز من اهل دينهِ وهم اول القائلين

باللعنات على ما يعتقد بهِ كما يتضح مما كتبناه عن اصلهم وتاريخهم ولكنهُ الغرض يعمي صاحبهُ فاعمى السر عسكر في ذلك الحين (وعلم الدروز بالحكاية فزادت جرأتهم وعظمت قحتهم ورأَى عمر باشا انهُ لا يفيدهُ غير الحزم فاستدعى خمسة من مشايخ الدروز للعشاء في سرايهِ واوصى خدامهُ واعوانهُ بالقبض عليهم وتكبيلهم بالقيود حالما يروا ان الامر ممكن ففعلوا ذلك وارسل هؤلاء المشايخ في ليلة القبض عليهم إلَى صيدا ليسجنوا فيها وظنَّ عمر باشا ان مثل هٰذَا الحزم يخيف اهل لبنان ويجعلهم في قبضة يدهِ ولكن آمالهُ خابت فان الدروز هاجوا وماجوا وبدأُوا يستعدون للقتال والمحاربة وجاهروا بعداوة الدولة التركيَّة وابرز بعضهم الاوامر المكتوبة التي صدرت اليهِ تأمرهُ بالقيام عَلَى النصارى وافشوا الاسرار الَّتِي كتبناها في هٰذَا الكتاب . الَّا ان قوتهم لم تكن كافية حينئذٍ للهجوم عَلَى الوالي ومن معهُ من الحرس سيما وان السياسة التركيَّة نجحت مرة أُخرى في استمالة النصارى) الذين كانوا إلَى ذلك الحين يبكون قتلاهم ولا يفقهون ان الحكومة هي الَّتِي قتلتهم (فعرضوا خدماتهم عَلَى هٰذَا التركي وبدأُوا يتحفزون للانتقام من الدروز عَلَى ما بدا منهم في العام الماضي . ثم ان الاتراك قسموا الدروز عَلَى انفسهم اذ عينوا لهم مشايخ غير الذين سجنوهم واستمالوا فريقاً منهم بالعطايا والرتب والهدايا . وانتهز الاتراك هذه الفرصة فداروا على الدروز والنصارى يطلبون اليهم ختم اعراض) مثل الاولى (يشكرون فيها احكام الدولة التركيَّة ويرجون ان يكون الوالي عليهم في كل الاحوال تركيًّا) وبدأُوا يعذّبون البعض ويملقون البعض الآخر

على عادتهم (حتى وصلوا رجلاً من اكابر الموارنة هو البطل الشهير يوسف بك كرم ورجوهُ الختم فامتنع فهددوهُ فقام عليهم وطردهم من بلدته وجاهر بالعصيان وقام معهُ ابطال كثيرون من اهل تلك الناحية فخافت الحكومة عاقبة الامر وتركتهم

ولما رأى الدروز ان فريقاً كبيراً من الموارنة قام على الاتراك وكانوا هم يميلون إلى محاربتهم لما تقدَّم بدأوا يخابرون اكابر الموارنة في الاتفاق على هذه الدولة ومال النصارى معهم مبدئيًّا إلى قبول هذا الرأي لان كل واحدٍ تحت حكم الاتراك يكرههم ويئنُّ من جورهم واجتمع نواب الطائفتين فاوضح الدروز لجيرانهم النصارى انهم ما قاموا لمقاتلتهم وقتلهم الاَّ بامر الحكومة وانهم لو لم يذعنوا لارادتها لكانوا في خطر قيام النصارى عليهم بمساعدة الاتراك فاختاروا اهون الشرَّين وابرزوا الادلة الواضحة على صدق قولهم فلم يرتب النصارى فيها . ثم تعهدَّ الدروز بالرضوخ لاحكام الامراء الشهابيين وهم من النصارى واشترطوا على الموارنة ان يكونوا هم البادئين في الحرب فخاف الموارنة ان يكون في الامر دسيسة وتساهلوا في كل امرٍ على شرط ان يبدأ الدروز بالعدوان وكانت كل طائفة تخاف من الاخرى بعد كل تلك الضغائن الَّتي زرعها الاتراك وتلك الحروب الَّتي لم يمر عليها الحول فلم يكن الاتفاق وعاد الفريقان بالخيبة إلَى مواضعهم فلقوا الاتراك على استعداد تام لاحباط مساعيهم ذلك انهم تملقوا للموارنة وتقرَّبوا منهم وخلعوا على بعضهم الخلع وجاؤُوا للبطريرك بارادة سنيَّة تجعلهُ تحت حماية السلطان الخاصة وترد إلَى طائفتهِ كل ما فقد منها في

الحرب الاخيرة ففرح النصارى عَلَى قلة ادراكهم بهذه الامور وابطلوا كل مخابرة مع الدروز في شأن الاتفاق على هذه الدولة . ثم ان الاتراك افهموا الدروز بالاوامر الصريحة ان كل مجافاة الحكومة لهم كان بسبب امتناعهم عن رد ما نهبوهُ من النصارى الذين كانوا يلحون بطلبهِ يوماً بعد يوم فزاد بهذا التصريح الحقد بين الطائفتين وحوّل اكثر كره الدروز من الاتراك إِلَى النصارى لانهم صدقوا هذه الاشاعة التركيَّة ولم ينكرها النصارى لان كل واحدٍ كان يميل إِلَى ارجاع ما فقد منهُ اليهِ وظنوا ان الحكومة مخلصة في سعيها!! والعجب ان الناس في ذلك الزمان كانوا يرون غدر الحكومة وخيانتها بعيونهم كل يوم ثم يعودون إِلَى تصديقها والاركان اليها ولكنهُ القدر اذا حلَّ يعمي البصر

عَلَى ان الدروز الذين اشتهروا بحب الاستقلال لم يصبروا عَلَى جور عمر باشا مع كل ما اتاهُ هو واخوانهِ من المساعي الخبيثة فقاموا في شهر نوفمبر سنة ١٨٤٢ تحت قيادة بطلهم الشهير شبلي العريان واحاطوا ببيت الدين)حاطبة السوار بالمعصم(فقطعوا الماء عنها وتهدَّدوها بالخراب ان لم تجب مطالبهم في الحال وهي ان يعزل عمر باشا في الحال وان يفرج عن المشايخ الذين كبلهم بالقيود ظلماً وغدراً وان يعفى الدروز من القرعة وان لا يتعرض الحكام لهم في حمل السلاح وان يثبت مشايخهم في مراكزهم وتعاد اليهم السلطة الَّتي كان الاتراك يحاولون نزعها منهم . فاجتهد عمر باشا ومن معهُ من الاتراك ان يفلوا تلك الجموع بقوة الحيلة والدسائس عَلَى عادتهم وبدأُوا يقولون لهم عن

النصارى كيت وكيت فاجابهم شبلي العريان في الحال ان الدروز ما قاموا عَلَى النصارى الاَّ بامركم وان الاموال الَّتِي وضعوا يدهم عليها لا تزيد عما اخذهُ الاتراك عَلَى سبيل الرشوة وان الصدر الاعظم كان من اول الذين اكلوا المال منهم . فرأَى الاتراك ان الحيلة لم تعد تنفع في هؤلاء القوم وعمدوا إِلَى القوة فارسلوا فرقة من الجنود اكثرهم من الاتراك والارنؤوط وشهرتهم في اللؤم تغني عن الشرح وكان مع هؤلاء العساكر مدافع اتوا بها من مدينة صيدا فلما وصلوا بيت الدين بدأُوا بمحاربة الدروز من الوراء وكان عمر باشا ومن معهُ من الحرس ومن خيالة الموارنة الذين اغتروا باكاذيبهِ يقاتلونهم من الامام فانهزم الدروز وركنوا إِلَى الفرار ورأَى شبلي العريان ان بسالتهُ الفائقة لا تفيد عند وجود المدافع فتأَخر وفرَّ مع بني قومهِ الابطال ولجأَ اكثر الدروز إِلَى بلاد حوران عَلَى عادتهم في ايام الشدائد والملمات . واما شبلي العريان فانهُ سلم نفسهُ إِلَى والي دمشق وقابلهُ هٰذَا التركي بالاكرام والاحترام وسعى لهُ في الوظائف الكبرى فنالها ولهذا يتهمهُ بعض الناس بالخيانة ويقولون انهُ رشي من الاتراك وعمل عَلَى احباط مساعي قومهِ حتى نال منهم هٰذَا الرضى وأُعطي تلك الوظائف الكبيرة

ولما وصلت هذه الاخبار إِلَى الاستانة ورأَى الاتراك ان الوالي التركي يدعوا اهل لبنان إِلَى الثورة بدل الخضوع التام وان اهل هٰذَا الجبل لا يرضون بحكم واحدٍ الاَّ اذا كان من امرائهم عدلوا عن منيتهم التي اتوا كل هذه الامور من اجل تحقيقها واجلوا امر تعيين الوالي من الاتراك فاصدر الباب العالي امرًا بجعل الجبل تحت حكم

اثنين من امرائهِ واحد من النصارى و واحد من الدروز

وفي اول يوم من سنة ١٨٤٣ تعين الامير حيدر ابي اللمع قايمقاماً على النصارى والامير احمد ارسلان قايمقاماً على الدروز في جبل لبنان وانتهى بذلك الاشكال وظنَّ الناس ان قد امتنع القيل والقال

على ان هذه التسوية لم تعد بالفائدة المقصودة لان الطائفتين كانتا مختلطتين في انحاء الجبل ولم يسكن الدروز في ناحيةٍ والنصارى في ناحية أُخرى فلم يمكن للحاكمين ان يقوما بالواجب عليهما اذ كيف يمكن لامير النصارى ان يحكم بعض الافراد الذين كانوا في قرى الدروز ولا يستاء الحاكم الدرزي الذي كانت مشاكلهم تقع في بلادهِ وكان يعدهم من جملة رعاياهُ . ولم تخلُ بلدة من النصارى الذين كانوا عمالاً ومزارعين لمشايخ الدروز يعيشون في اراضيهم ويدفعون لهم مالاً معلوماً اجرتها كل سنة وكان هؤلاء المشايخ يعتبرون انفسهم رؤساء بالارث على اولئك المزارعين فلم يكن لهم السكوت عن استقلال عمالهم عنهم وانحيازهم إلى اميرٍ نصراني لا دخل لهُ في قراهم ومصالحهم وهٰذا هو الذي كان علة الحرب الاولى التي اتينا على ذكرها لو يذكر القراءُ ما كان من بطريرك الموارنة وتعيينهِ اثنين من النصارى في كل قرية للنظر في امور ابناء طائفتهم بالرغم عن مشايخ الدروز الذين كانوا يعتبرون الحكم على هؤلاء القوم من حقوقهم الشرعيَّة المقدَّسة نالوها اباً عن جدٍ ولم يهن عليهم ضياعها . ثم ان الموارنة الذين كانوا بحسب هٰذا التقسيم الاخير وفي حكم الامير الدرزي وفي بلادهِ جعلوا يتذمرون بدون موجب و يقولون ان تحكم الدروز لا يطاق وانهم

(يفضلون الموت عَلَى الخضوع لامراء الدروز ويحركون الناس عَلَى الفتنة باغراء اساقفتهم وعمال بطريركهم وظهر في الحال ان جراثيم العداء وحب القتال كانت كامنة في الطرفين لا ينقصها الاَّ النار فتلتهب وتعيد الجبل إلَى ما كان عليهِ . واما النصارى من غير الطائفة المارونيَّة فكانوا يرضخون لحكم الامير الدرزي وعمالهِ بدون تذمر اينما كانوا ويؤثرون حكم الدروز عَلَى حكم الاكليروس ولذلك كانوا يساعدونهم اذا لزم الحال ولا بدع اذا نفر الدروز من حكم الاكليروس الماروني بعد ان رأَوا بقيَّة الطوائف النصرانيَّة تنفر منهُ ايضاً وتخاف الاضطهاد اذا علت كلمتهُ وثبتت امرتهُ . ورأَى الاتراك ان اوفق الطرق لابقاء سيادتهم انماء العداء بين الطوائف واقامة امةٍ على امة وكان ما كان بحيلهم ودسائسهم .)

ولما كثرت الشكوى من النظام الاخير بدأ رؤَساء الطائفتين والحكام يتخابرون ويرتأُون الآراء الكثيرة للتوفيق بين مصلحة الطرفين فكان الحكام الاتراك يرتأُون الأمور الَّتي لا تمكن ويعارضون في كل رأي حميد ويختلقون لهُ العراقيل فلما رأَى القوم ان المخابرات لم تجدِ نفعاً عولوا مرة أُخرى عَلَى الحرب والقتال وقال بطريرك الموارنة عَلَى مسمع من الجمهور « اما ان يسود الدروز علينا او نسود عليهم فلنبدأْ بالاستعداد لان الذي يضرب الضربة الاولى يصير اقرب إلَى الفوز من خصمهِ » وهو قول صحيح علمهُ البطريرك بالراي ولكن الدروز سبقوهُ إلَى فعلهِ وكانوا هم الغانمين . وعَلَى ذلك عاد جبل لبنان إلَى حالهِ الاول وكان الموارنة هم المعتدين اذ قتلوا مكارياً من الدروز عَلَى

مقربةٍ من نهر الكلب وبدأ الدروز يقتلون كل نصراني يعثرون بهِ ثم هبت الطائفتان للحرب عَلَى عادتهما وبدأت الجماهير تنتظم جيوشًا من الطرفين وتستعد لحرب عظيمة . وليس يعلم غير الله مقدار الفرح الذي شعر بهِ الاتراك من قيام اهل لبنان للحرب مرة أُخرى فهم ابدًا يسرون بهلاك الامم الَّتِي يحكمونها واضعافها ولطالما قال ولاتهم عَلَى مسمعٍ من الناس عند بلوغ هذه الحوادث اليهِ اللهمَّ اهلك الكافرين بالكافرين وبناء عليهِ ارسلوا إِلَى مشايخ الدروز يظهرون لهم الحب والوداد عَلَى ما تعوَّدهُ الناس منهم في هذه الاحوال ويشدّدون عليهم بعدم التسليم للنصارى في شيءٍ مما يطلبونهُ واوعزوا في الوقت نفسهِ إِلَى رؤساء النصارى بالتقدم عَلَى الدروز ومحاربتهم مظهرين لهم الرضى عن هذا الصنيع ما دام الحق في جانبهم . ولا يظن احد المبالغة في هذا الكلام فقد اثبت قناصل الدول في تقاريرهم الرسميَّة ان الحكومة التركيَّة هي التي امرت الموارنة بالهجوم عَلَى الدروز وافتتاح القتال في ذلك الحين

ولما بدأ العداء والقتال انحصرت الآمال في رجال دير القمر وكانوا جمعًا غفيرًا يمكن لهم ارسال الفي مقاتل إِلَى ساحة الوغى مسلحين باحسن انواع السلاح التي يمكن لعامة الناس يومئذٍ مشتراها واشترط اهل هذه المدينة على انفسهم وسواهم من ابناء طائفتهم الاَّ تكون لهم علاقة بالدروز من بعد ذلك اليوم ولم يسمحوا لاحد النصارى ان يختلط بهم او يقتلونهُ قتلاً حتى انهم قتلوا خوريًا من رؤساء دينهم لانهُ لم يمتنع عن الاختلاط بآل جنبلاط وخاف بقيَّة الناس العاقبة

فجعلوا يجتنبون الدروز في كل قرية ويضادونهم في كل امر. كل هٰذا والدروز صابرون إلَى ان تتم معدَّاتهم وتاتي الجماهير من وادي التيم وحوران لمساعدتهم لانهم لا يقدمون عَلَى الحرب الَّا اذا اجتمعت كل قواتهم ووثقوا بالظفر والنصر. وجاءت في تلك الاثناء اموال وافرة إلَى بطريرك الموارنة اعانةً للذين نكبوا في الحرب الاخيرة فبدل ان يعطيها هٰذَا الرئيس إلَى الذين نهبت اموالهم وقتلت رجالهم وزَّعها عَلَى قسسهِ وعمالهِ ليستعملوها آلةً لاضرام نارا لحرب الثانية) وامرهم ان يدفعوا لكل محارب ينضم اليهم اربعة غروش في النهار ففعلوا ذلك واجتمع لديهم خلق كثير (ثم اتى الاكليروس الماروني كل حيلةٍ لاقناع الناس ان تلك الحرب دينيَّة وانهُ يجب على كل نصراني ان يقوم لمحاربة الدروز والمساعدة على اقتلاع آثارهم وطردهم من جبل لبنان) وياليتهم تعاونوا مع حلفائهم القدماء (الدروز) على مقاتلة الذين حرضوهم على هذه الامور وزرعوا بزور العدوان بينهم وطرد الاتراك من تلك البلاد الَّتي ملأُوها ظلمًا وفسادًا

(وبدأَت جماهير الدروز تفد على المختارة من كل انحاء بلاد الشام وتجتمع حول سراي سعيد بك جنبلاط لان هٰذَا البيت كان كما قدَّمنا اشهر بيوت الدروز ولرئيسهِ صولة كبيرة فقد اشتهر الشيخ بشير جنبلاط إلَى حد انهُ صيَّر امراء الجبل وفي جملتهم الامير بشير الشهير آلةً في يدهِ فكانوا هم يحكمون بالاسم وهو يحكم بالفعل في جبل لبنان وعرف بالثروة الهائلة والدراية التامة ولم يزل بيت جنبلاط اغني بيوت لبنان إلَى هذا اليوم. وورث المال والشرف سعيد بك جنبلاط عن

ابيهِ الشيخ بشير بعد ان امات احد اخوتهِ واضطرَّ الآخر إِلَى التظاهر بالجنون والبله وحب الاعتزال مدة حياتهِ . وكان سعيد بك يستقبل جماهير الدروز ويضيفهم ويقدّم لهم الطعام ولخيولهم العلف مدة تجمهرهم في المختارة إِلَى ان تمَّ الاستعداد وصار الدروز في مركز يمكنهم من مقاومة اعدائهم والفتك بهم كما فعلوا في السنة السابقة . واما النصارى فكان مركز استعدادهم في دير القمر وزحلة وعبيه تحت قيادة الامراء الشهابيين وكان الامير بشير الكبير إِلَى ذلك الحين حيًّا في مالطه فجعلوا يقسمون بانهم لا يرجعون عن الحرب حتى يفنى الدروز عن آخرهم ويعود الامير بشير إِلَى الحكم عَلَى الجبل . ثم ان الدروز صاروا يتظاهرون بحب المسالمة ويشكون النصارى إِلَى الحكومة وطلبوا اليها ان ترسل بعض عساكرها لتقيهم هجمات الموارنة . وكان الاتراك ينتظرون هذه الفرصة بذاهب الصبر فأرسلوا في الحال فرقًا من جيشهم إِلَى الاماكن ٱلَّتِي اجتمع فيها الدروز لتكون عَلَى استعداد لمساعدتهم والفتك بالنصارى كما فعلت في العام الماضي واعمى الله قلوب المسيحيين فنسوا الذي رأوهُ من الاهوال وعادوا إِلَى مهاجمة الدروز والاتكال عَلَى مواعيد الحكومة والوقوع في حبائلها وشراكها

وبدأت الحرب في اليوم الثاني عشر من شهر ابريل سنة ١٨٤٥ اذ هجم الموارنة عَلَى كافة القرى ٱلَّتِي اجتمع فيها الدروز ما خلا المختارة وصاروا ينشدون الاناشيد الحربية ويأتون الفظائع وهم يحسبون انهم قد تغلبوا عَلَى الدروز واخذوا بالثار منهم . وكان النصارى في قائمقاميَّة الشوف — وهي في اول لبنان من ناحية بيروت — تحت قيادة

(المطران الذي سار في طليعة المقاتلين وصليب النصرانيَّة في يدهِ فعلمت الحكومة بحركاتهم واذنت لهم اذنًا رسميًا بالهجوم عَلَى الدروز ومحاربتهم ففعلوا ذلك وفازوا في اول الامر فوزًا مبينًا وقتلوا جماعة من الدروز وهجموا عَلَى القرى ٱلَّتِي لهم في الشوف فدمروها ونهبوها وكانت عدتها اربع عشرة قرية . ولما اسكرتهم خمرة النصر تقدموا عَلَى اعظم مواقع الدروز وهي المختارة مقر آل جنبلاط يريدون بلوغ المراد من اعدائهم فلما وصلوها رأَوا جيوش الدروز فيها آمنة مطمئنة ومعها فرقة من جيش الاتراك تقابلهم الدروز وعساكر السلطان باطلاق البنادق ومدافع الحكومة وكسروهم شرّ كسرة فاضطروا إِلَى الفرار وترك الديار للاعداء

واما في عبيه حيث اجتمع خلق كثير من النصارى تحت قيادة امرائهم من آل شهاب فجاء الدروز وحاصروا البلدة حصارًا شديدًا وبطشوا بالنصارى ففلوا جموعهم وقتلوا العدد الوافر من رجالهم وحصروا الامراء ومن بقي معهم داخل القرية . كل هٰذا وعساكر الاتراك واقفون يتفرجون عَلَى القتال ويضحكون من جهل النصارى وعمه قلوبهم فقد كانوا يردونهم عن الدروز ولا يردون الدروز عنهم وفعلوا ذلك في كل المواقع الماضية وما فتأُوا يعتقدون الصدق في حكامهم الاتراك ويركنون اليهم ويتكلون عَلَى تدبيرهم ولا غرو فهذا جزاء الجاهلين والمغرورين في كل بلاد . ولما طال الحصار عَلَى عبيه وسمع وكلاء الدول بهذه المصائب لم يبقَ للكولونل روز وكيل دولة الانكليز صبر عَلَى هذه الاحوال فسار بنفسهِ إِلَى تلك القرية ليرى في منع القتال وخلاص الامراء والباقين من اعوانهم في حوزة الاتراك والدروز فلما

وصلها حاول قائد العساكر التركيّة ان يمنعهُ من الدخول فزجرهُ الكولونل وشهر الرڤولڤر في وجههِ وقال انهُ سيدخل عبيه رضي الاتراك بالامر او لم يرضوا وانهُ اذا قتل او جرح جرَّ إلَى بلاد الشام جيشاً من الانكليز يضني قوام المملكة التركيَّة ويفني قواتها فخاف التركي عَلَى عادة قومهِ لايذعنون لغير القسوة والتهديد وسمح لهُ ان يدخل القرية ففعل ذلك وخابر مشايخ الدروز والامراء ولم يمكن لهُ ان يخلص النصارى المأسورين الَّا بعد ان رضي هؤلاء باعتبار انفسهم اسرى الحكومة التركيَّة فسار بهم الكولونل روز بنفسهِ إلَى بيروت بعد ان اخذ عَلَى الدروز المواثيق بعدم التعرض للنصارى في تلك الناحية

وبعد المناوشات والمعارك الصغيرة في اكثر انحاء الجبل ارسل سعيد بك جنبلاط امرًا إلَى اخوانهِ الدروز ينهاهم فيهِ عن الحرب وكان ذلك بتوسط الكولونل روز وبعد التعب الكثير . ورأى غبطة البطريرك ان الحرب عادت بالكسر والفشل عَلَى جنودهِ واعوانهِ فسكت واسكت عمالهُ وعادت بذلك البلاد الى السكون بعد ان ظلت تحارب وتتهاوش حوالي خمسة اعوام . ثم بدأ السفراء والباب العالي يفكرون في طريقة لمنع تكرار هذه الحوادث في جبل لبنان واصلاح حال حكومتهِ وهذه عادتهم لا يهتمون لصالح البلاد الَّتي يظلمها الاتراك الَّا متى تفاقم الخطب وعمَّ الضرر وقتل الرجال ونهبت الاموال . فقرَّ قرارهم بعد التعب الكثير على التعويل على نظام القائمقامين واحد للدروز وواحد للنصارى ولكنهم اعطوا امراء الدروز ومشايخهم حق السيادة على النصارى الذين في دائرة حكم الامير الدرزي على شرط

ان يكون لهؤلاء النصارى وكيل من طائفتهم يعاون الشيخ الدرزي على الحكم وسمّي هٰذا النظام باسم شكيب افندي لانهُ هو الذي سنهُ في اواخر سنة ١٨٤٥ وكان هٰذا الرجل من ادباء الاتراك واصحاب الذمة والفضل فيهم

واما مدينة دير القمر فلما كانت واقعة في وسط بلاد الدروز وكل اهلها من النصارى فقد جعل الاتراك يغرون اهلها على عدم التسليم بحكم مشايخ الدروز عليهم وكانوا هم يكرهون اولئك المشايخ لانهم فتكوا بهم واذاقوهم المرّ في السنوات الخمس التي مرّت بدل ان يقوهم ويحموهم من بقيّة الدروز لانهم كانوا عمالاً لهم يزرعون لهم الارض ويقدمون لهم الاموال ويخدمونهم بالاخلاص والصداقة فنفروا من مشايخ ابي نكد واقسموا الاّ يبقى درزي في بلدتهم ولا يحكمهم واحد من الدروز وبعثوا إلى الوالي يرجونهُ تعيين حاكم تركي عليهم فأجاب الوالي سؤلهم وهو يرقص طرباً . وهكذا تمّ طرد الدروز من اعظم مدائن لبنان وتفرّغ اهل دير القمر للصناعة والتجارة فربحوا الاموال الوافرة وبنوا القصور الباذخة وزينوا صدور نسائهم بالآلي والجواهر الباهرة ولاحت عليهم لوائح النعمة والثروة فطمعوا في الدروز وحقد الدروز عليهم فصاروا يترقبون الفرص للايقاع بهم ونهب اموالهم .

وسوف يجيء في الفصل القادم تفصيل الاسباب التي دعت
إلى عود القتال وحصول المذابح في سنة
الاهوال